من روائع البيان القرآنى

فى

آيات الظلمات والنور

دراسة بلاغية تحليلية

دكتـــور
رجـــب محـــمد سالـــم رفاعـــى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
جامعة الأزهر

مطبعة أبو سامى الحديثة
بمنشية ناصر



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٤/١٨٠٨٦

الكمبيوتر والتصميم بمركز M.K.A السندس لخدمات الكمبيوتر

ت: ٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢/٢٥٩٢٤٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الذى أنزل عليه القرآن الكريم، تبيانا لكل شىء، وهدى ورحمة للمؤمنين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«وبعد»

فإن الله عز وجل قد أرسل نبيه سيدنا محمداً ﷺ ليدعو الناس إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، وأنزل عليه الكتاب المبين، وبين لهم فيه سبل الهداية التى تتحقق باتباعها، والتمسك بها سعادتهم فى الدنيا، وتنتهى بهم إلى النعيم المقيم فى الآخرة، كما كشف لهم عن طريق الضلال، ونهاهم عنه.

والقارىء لكتاب الله عز وجل، والمتأمل فى أسلوبه وألفاظه، والمتذوق لمعانيه ودلالاته يجد من أول وهلة أنه فى قمة الفصاحة والبلاغة والبيان، وقد شهد له بذلك خصوم الإسلام وأعداؤه بعد أن سمعوه من رسول الله ﷺ. فقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: «يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يُبَلِّغ أنك منكر له، وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى، ولا برجزه ولا بقصيده منى، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته[1].

---

(١) ينظر لباب النقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطى على هامش تفسير القرآن العظيم للجلالين ج٢ ص ١٢٦ مطبعة الحلبى.

هذا وقد أشار النبي ﷺ إلى فضل القرآن على كل كلام بوجه عام، فيما روى عن الحارث الأعور قال: «مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليّ رضي الله عنه فأخبرته فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أما إنها ستكون فتنة، قلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿**إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به**﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور»[١].

وقد استوقفتني وأنا أقرأ القرآن الكريم الآيات التي وردت فيها كلمة الظلمات والنور، وشدّ انتباهي تنوع مواضع كل منهما.

فتارة تأتيان مقترنتان بكلمة الإخراج كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٢] وتارة تأتيان معًا دون أن تقترنا بكلمة الإخراج كقوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾[٣]. وتارة أخرى تأتي كل منهما على حدة في آية خاصة كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[٥].

---

(١) ينظر: تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول: جـ١ ص ٨٤.
(٢) سورة الحديد الآية (٩).
(٣) سورة الأنعام الآية (١).
(٤) سورة النساء الآية (١٧٤).
(٥) سورة الأنعام الآية (٣٩).

كما لفت نظرى ودعانى إلى مزيد من التأمل والتفكير فى مواضع هاتين الكلمتين كثرة ما ذكره المفسرون من معان متنوعة بين الحقيقة والمجاز، وما تشير إليه هذه المعانى من إيحاءات ودلالات. الأمر الذى دفعنى إلى بحث ودراسة الآيات التى أشتملت على هذين اللفظين، محاولا كشف اللثام عن الأسرار البلاغية، والصور الجمالية فى هذه الآيات، وما توحى به كل كلمة من هاتين الكلمتين فى الآيات التى وردت فيها من دلالات تكشف عن مدى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، فالكلمة هى الكلمة، إلا أن المراد بها قد يتعدد ويتنوع وفقا لما يقتضيه السياق والمقام. وقد أحصيت أكثر من أربعين آية وردت فيها هاتان الكلمتان أو إحداهما، وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

المقدمة: وقد تضمنت أهم أسباب اختيارى لهذا الموضوع، والمنهج الذى سرت عليه فى البحث.

المبحث الأول: مفهوم الحقيقة والمجاز بين اللغويين والبلاغيين.

المبحث الثانى: كلمات الإخراج والظلمات والنور فى عرف اللغويين.

المبحث الثالث: دراسة تحليلية بلاغية لآيات الظلمات والنور فى القرآن الكريم ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: دراسة وتحليل الآيات التى اشتملت على الألفاظ الثلاث: الإخراج والظلمات والنور.

المطلب الثانى: دراسة وتحليل الآيات التى اشتملت على لفظى الظلمات والنور فقط.

المطلب الثالث: دراسة وتحليل الآيات التى اشتملت على لفظ النور فقط.

المطلب الرابع : دراسة وتحليل الآيات التى اشتملت على لفظ الظلمات فقط .

المبحث الرابع : الأبعاد والمضامين التربوية والمعرفية التى يمكن استنتاجها من خلال هذه الدراسة .

الخاتمة : وتتضمن أهم نتائج البحث .

هذا وبالله التوفيق . وهو حسبى ونعم الوكيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتـــور

رجب محمد سالم رفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

المبحث الأول

الحقيقة والمجاز بين اللغويين والبلاغيين

من الواضح أن الألفاظ توضع إزاء مسمياتها لتدل عليها مباشرة. حسب متعارف الناس، فيلتزم بمعناها المستعملة فيه وفق إصطلاحهم الخاص بها.

وقد أختلف علماء اللغة فى أصل نشوء لغات البشر، وتصوروا لذلك تصورات كثيرة، ووضعوا فى هذه التصورات نظرياتهم.

من هذه النظريات أن الإنسان فى عهوده الأولى من تاريخ البشرية حين بدأ يعى ما يحيط به رأى حاجته ماسةً إلى التعبير عن الأشياء المحيطة به، فأطلق على كل منها اسما خاصا؛ فهذه شمس، وذاك: قمر، وهذا: نجم، وتلك: سماء، وهذا: حجر، وتلك: شجرة، وهكذا.

فإذا ذكرت كلمة (شمس) فإنها لا تعنى غير هذا الكوكب الذى يشرق عند الصباح ويغرب عند المساء، وإذا ذكرت كلمة (قمر) فإنه لا يقصد غير هذا الجسم الذى يظهر فى الليل، ويسكبُ سيَّالته الفضية على الكون، وإذا ذكرت كلمة (سماء) فإن الكلمة لا تعنى غير هذا الذى يعلو الناس جميعا وفيه تتحرك الكواكب والنجوم والطيور... وهكذا.

وقد لخص صاحب التحرير والتنوير[1] ما أورده علماء اللغة فى أصل نشوء اللغات عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾[2] بقوله: « والظاهر أن الأسماء التى علمها آدم هى ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التى يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها، أو إستحضارها، أو إفادة حصول بعضها مع بعض، وهى –أي الإفادة– ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداءً أسماءُ الذوات من الموجودات مثل الأعلام الشخصية،

---

(١) هو سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور التونسى تولى خطة القضاء عام ١٣٣٣ هجرية ثم خطة الفتيا فى رجب ١٣٤١ هجرية.

(٢) سورة البقرة الآية (٣١).

وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء مثل اسم جنة، وملك، وآدم، وحواء، وإبليس، وشجرة وثمرة، ونجد ذلك بحسب اللغة البشرية الأولى . . . وتعليم الله تعالى آدم الأسماء إما بطريقة التلقين بعرض المسمى عليه فإذا أراه لُقن اسمه بصوت مخلوق يسمعه فيعلم أن ذلك اللفظ دال على تلك الذات بعلم ضرورى . أو يكون التعليم بإلقاء علم ضرورى فى نفس آدم بحيث يخطر فى ذهنه اسم شيء عندما يُعرض عليه فيضع له اسما؛ بأنْ ألهمه وضع الأسماء للأشياء ليمكنه أن يفيدها غيره؛ وذلك بأن خلق قوة النطق فيه وجعله قادرًا على وضع اللغة كما قال تعالى ﴿ **خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾[1]، وجميع ذلك تعليم؛ إذ التعليم مصدر علَّمه إذا جعله ذا علم مثل أدَّبه، فلا ينحصر فى التلقين وإن تبادر فيه عرفا»[2].

هذا . . وتستطرد هذه النظرية إلى تصوّر ما حدث بعد ذلك بقرون، أو عصور، أو دهور فنقول : وحين تمكنَ البشر من حفظ هذه المُسَمَّيَات، وعرفوا طريقة استعمالها، وصارت عندهم واضحة القصد، بينة المعنى والمراد، انتقلوا إلى مرحلة جديدة من التعبير، وساعدهم على هذه النقلة تفتُّح المدارك واتساعها، وكثرة المعارف وتشعبها، وزيادة الثقافة وتعمقها، وعوامل أخرى كثيرة، هذه المرحلة كانت معالمها على الشكل التالى :

تصور الإنسان (البحر) فرآه واسعا عميقا لاقرار له، فيه الدُّر، وفيه الصَّدَف، وفيه الموج، وفيه ما ينفع وما يضر . ورأى فى بعض الناس صفات تشبه صفات البحر، فيهم السَّعَة فى المعارف، والعمق فى التفكير، ويتكلمون كلامًا رائعا يأخذ بمجامع القلوب، كما يتحدثون إن أرادوا بكلام عادى بسيط، ويغضبون فيكون غضبهم كالنار، ويرضون فيكون رضاهم كالعسل المصفى، ويعطون فلا يكون لعطائهم حد، وهكذا . .

---

(١) سورة الرحمن الآيتان (٣، ٤) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير : جـ١ ص ٤٠٩، ٤١٠ .

لقد اشترك البحر وهذا الإنسان المعين بصفات متشابهة . . إذن، فما الذى يمنعهم من أن يطلقوا على هذا الإنسان كلمة «البحر»؟؟

والشمس تعنى فى مسماها الأصيل الكوكب العالى الذى يشرق فى الصباح، فيحيل الظلام نوراً، والبرد القارس دفئا، أو حَرًّا، ويغيب فى السماء، فيعود النور ظلاما، والدفء برداً، وهذا الكوكب المنير العالى سبب فى انبثاق الزهر والشجر والثمر، كما هو سبب فى إحراق الغابات وكثير من معالم الحياة. ورأى -ذلك الإنسان القديم- أن فى الناس من له صفاتٌ كصفات الشمس . . فى علو المكانة، وفى إخراج الآخرين من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والعلم، وفى الحديث الطيب الذى يبعث فى القلوب الطمأنينة والرضى، ويفجر فيها ينابيع الخير، ويدفَعُها إلى كل عمل كريم، وإبداع عظيم . . وهكذا.

إذن، بين الشمس الحقيقة وهذا الإنسان صفاتٌ مشتركة، وأمور متشابهة، فلماذا لا يقول عنه إنه: شمس؟؟.

والسماء: إنها تعنى فى مسماها هذا الفضاء الرحيب الذى يعلو الوجود كله ويحيط به، ويمتد إلى ما لا نهاية، حتى لا تبلغه العين[1] فيه تسبح الأفلاك، وفيه تجرى الشمس إلى مستقر لها، وفيه تتجمع السحب، ومنه تنزل الأمطار إلى الأرض فتشربها، ثم ينبت العشب والنبات، وتورق الأشجار، وتثمر الثمار، ويكون الرزق والمال الوفير، وما دامت السماء تحمل هذا كله، وأكثر منه، إذن ما الذى يمنع قائلا أن يقول:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا ليوثا

وهو يقصد بنزل السماء هطول المطر. أو ليس بين السماء والمطر علاقة وارتباط. وما الذى يمنعه أن يقول: نزل من السماء رزق . . ويعنى الغيث. أو ليس بين غيث السماء والرزق علاقة وارتباط؟؟

---

(١) السماء: فى اللغة: هى كل ما علاك وأظلك. ومنه قيل لسقف البيت: سماء، وللسحاب سماء (ينظر تهذيب الصحاح ٣/٩٩٥).

عند هذه المرحلة من التفكير، ووصول الإنسان القديم إلى هذه المقارنات ولد المجاز، ولا ندرى فى الحقيقة تاريخ ميلاد المجاز من عمر البشرية، وكل ما نعرفه أنَّا فى اللغة العربية وجدنا الأدب الجاهلى وهو أقدم كلام وصل إلينا فى اللغة العربية ذاخرا بهذا المجاز، وعرفنا أنه متداول مشهور على الألسنة، وأدركنا أنه سابق للجاهلية بكثير من الدهور والقرون، ولولا ذلك ما شاع وعرف، وتداولته الألسنة كما تداولت المسميات على حقيقتها الأصلية[١].

وبعد هذه الإطلالة الموجزة على أصل نشوء اللغة ورحلة الألفاظ من الحقيقة إلى المجاز. كان من الطبيعى بيان مفهوم كل من الحقيقة والمجاز عند اللغويين وفى اصطلاح البلاغيين.

أولا: مفهوم الحقيقة عند اللغويين وفي اصطلاح البلاغيين:

١- مفهوم الحقيقة عند اللغويين:

الحقيقة كلمة أصل مادتها حرفان هما: الحاء والقاف. أعنى كلمة حق، والحق هو الشىء الثابت. قال تعالى ﴿ **كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[٣]. أى: ثبت، فالحقيقة إذن هى الشىء الثابت إذا جعلناها اسم فاعل، أو الشىء المثبت إذا جعلناها اسم مفعول من حققته أثبته، وكلاهما صحيح، لأن صيغة فعيل فى اللغة تصلح أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول كما فصل فى موضعه[٤]، والتاء فيها ليست تاء التأنيث كالتاء فى جميلة ونظيفة وكريمة، إنما التاء فى كلمة حقيقة جاءت للنقل من الوصفية إلى الأسمية كالتاء فى نطيحة؛ وبيان هذا أنك إذا قلت نظيفة وجميلة فأنت تعنى وصفا لمؤنث تقول: غرفة

---

(١) ينظر البلاغة العربية فى ثوبها الجديد جـ٢ ص ٧١ – ٧٤.

(٢) سورة يونس الآية (٣٣).

(٣) سورة يس الآية (٧).

(٤) ينظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التخليص جـ٤ ص ٤.

نظيفة، وزهرة جميلة. أما إذا قلت: حقيقة فلا تعنى بهذه الكلمة وصفا لمؤنث. لأنك تقول: هذا اللفظ حقيقة، ولو كان وصفًا كان ينبغى أن تقول: هذا اللفظ حقيق[١].

فكلمة حقيقة إذن نقلت من كونها وصفا إلى كونها اسما غير وصف، التاء تاء النقل كما فى نطيحة. فإن نطيحة ليست وصفا.

والحقيقة: ما يصير إليه حقُّ الأمر ووجوبه، وبلغ حقيقة الأمر أى يقين شأنه... والحقيقة فى اللغة: ما أقر فى الإستعمال على أصل وضعه[٢].

ولما كانت الألفاظ فى الواقع توضع إزاء مسمياتها لتدل عليها مباشرة حسب متعارف الناس وفق اصطلاحهم الخاص بها، فيلتزم بمعناها المستعملة فيه لذلك قيد تسميت الألفاظ بحسب واضعها فتنقسم إلى.

الحقيقة اللغوية:

وهى اللفظ المستعمل فيما وضع له لغة. وتشمل جميع مفردات اللغة التى لم يؤثر فيها عرف طارىء، ولا وضع جديد مثل: إنسان. سماء. أرض. كتب. علم. فى. هل.

الحقيقة الشرعية:

وهى الألفاظ التى استعملها الشرع فى أعمال خاصة بها، مثل الصلاة فإنها بعرف الشرع العبادة المخصوصة، التى هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وإن كانت من ناحية اللغة معناها: الدعاء. وهكذا فى كثير من الكلمات التى وضعها الشرع لمعانٍ خاصة بها كالطهارة، والزكاة، والحج[٣] إلخ.

---

(١) ينظر شروح التلخيص جـ٤ ص ٤. والبلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع للدكتور/ فضل حسن عباس. دار الفرقان للنشر والتوزيع.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (حقق).

(٣) ينظر الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح الشيخ عبد المتعال جـ٣ ص ٨٨ بتصرف.

الحقيقة العرفية العامة:

وهى اللفظ الذى كثر استعماله فى معنى غير المعنى الأصلى، بحيث لا تختص به جهة معينة من اللغة، ولا طبقة معينة ممن يتكلمون بها كلفظ «دابة»[١]، فإنه يدل فى أصل اللغة على كل ما يدب على الأرض، فيشمل الحشرات والأفاعى والحيوانات، وقد استعملها القرآن فى معناها اللغوى قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾[٢].

ولكن تصالح الناس وأصبح استعمالها الشائع فى تخصيص الدواب بذوات القوائم الأربع من الجمال والخيل والبغال والحمير وغيرها، وهذا هو العرف العام لها.

الحقيقة العرفية الخاصة.

وهى اللفظ الذى كثر أستعماله فى معنى جديد عند طبقة معينة من الناس، أوجهة معينة[٣]، ومن ذلك مصطلحات العلوم المختلفة بعد تعدد العلوم والمعارف وأصبح لكل علم مصطلحاته الخاصة به، ففى علوم الحديث مثلا نجد هذه الكلمات: الصحيح، الضعيف، الحسن، التدليس، وفى علم البلاغة نجد هذه المصطلحات: الفصل، الوصل، القصر، الاستعارة، وفى علم النحو نجد: الأعراب، البناء، الاشتغال، التمييز، وفى علم الصرف تجد: الإعلال، الإبدال، التصغير، النسب، وفى علم النفس: تجد: الدافع، الشعور، الربط، الانتباه، وهكذا كل نوع من أنواع المعارف تجد له مصطلحاته الخاصة به[٤].

---

(١) ينظر الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح الشيخ عبد المتعال جـ٣ ص ٨٨ بتصرف.

(٢) سورة النور الآية (٤٥).

(٣) ينظر الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح الشيخ عبد المتعال ج٣ ص ٨٨ بتصرف.

(٤) ينظر البلاغة. فنونها وأفنانها علم البيان والبديع ص ١٣٤.

٢- مفهوم الحقيقة فى اصطلاح البلاغيين:

هى الكلمة المستعملة فيما وضعت له فى اصطلاح به التخاطب[١].

بيان القيود:

قولهم: الكلمة المستعملة: خرج به الكلمة قبل الاستعمال فلا توصف بحقيقة ولا مجاز.

وقوله: فيما وضعت له: أخرج الكلمة المستعملة فيما لم توضع له.

وهى قسمان:

أحدهما: الكلمة المستعملة غلطا فى التلفظ مع القصد لغير ما استعملت فيه كقولك: خذ هذا الكتاب، مشيرا لفرس.

فمثل هذا لا يسمى حقيقة، لأن الكتاب لم يوضع للفرس، والاشارة هى التى بينت قصد المتكلم، أما إذا عدم القصد فهو الغلط، مثل أن ترى زيدا وتظنه عمرا فتقول: جاء زيد، ثم يظهر أنه عمرو.

فالكلمة مستعملة فيما وضعت له، فى زعم المتكلم، فهى حقيقة، لأن الغلط إنما هو قصد المتكلم.

الثانى: المجاز المستعمل في غير ما وضع له مطلقا، لا فى اصطلاح التخاطب ولا فى غيره كلفظ: أسد فى الرجل الشجاع.

وقوله: «فى اصطلاح به التخاطب» ليدخل اللفظ المستعمل فيما وضع له فى اصطلاح المستعمل كلفظ «الصلاة» إذا استعملها المخاطب فى عرف الشرع فى العبادة المخصوصة، فهى حقيقة عنده، وإذا استعملها فى الدعاء فإنها مجاز عنده، لأنها مستعملة فى غير ما وضعت له عنده، وإن كانت مستعملة فى حقيقتها اللغوية، ولكنها ليست فى اصطلاح المستعمل[٢].

---

(١) ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح عبد المتعال جـ٣ ص ٨٤.

(٢) ينظر: شروح التلخيص جـ٣ ص ٦، ٧ بتصرف، وكتابنا: علم البيان بين التقعيد والتطبيق ص ١٦٤، ١٦٥.

ثانيا: مفهوم المجاز عند اللغويين وفى اصطلاح البلاغيين:

١- مفهوم المجاز عند اللغويين:

المجاز: مَفْعَل وأصله مَجْوَز نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها ثم قلبت الواو ألفًا لتجانس حركة ما قبلها، وهو صالح للزمان والمكان والحدث.

وهو إما مشتق من جاز المكان يجوزه إذا تعداه، إذا جعلنا أصل الاشتقاق الفعل، على رأى الكوفيين.

وإما مشتق من الجواز بمعنى التعدية إذا جعلنا أصل الاشتقاق المصدر على رأى البصريين.

وعلى الأول فهو مستعمل بمعنى مكان وقوع الحدث، فيكون اسم مكان.

وعلى الثانى فهو مستعمل بمعنى الحدث، فيكون مصدرًا ميميا، وليس ثمة خلاف فى أن الزمان ليس منقولا عنه، لعدم المناسبة بينه وبين المدلول عليه الإصطلاحى.

قال صاحب اللسان: والمجاز والمجازة: الموضع: الأصمعى: جزت الموضع سرت فيه، وأجزته: خلفته وقطعته، وأجزته أنفذته، قال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل

ويروى: ذى حقاف.

وجاوزت الموضع جوازًا: بمعنى جزته[١].

وفى مختار الصحاح: جاز الموضع سلكه وسار فيه، يجوز (جوازًا) و (أجازه) خَلَّفه وقطعه (واجتاز) سلك. و (جاوز) الشىء إلى غيره (تجاوزه) بمعنى أى (جازه)... وتجوَّز فى كلامه أى: تكلم بالمجاز. وجعل ذلك الأمر (مجازًا) إلى حاجته أى: طريقا ومسلكا[٢].

---

(١) ينظر: اللسان مادة: (جوز).

(٢) ينظر: مختار الصحاح مادة (جوز).

٢ - مفهوم المجاز فى اصطلاح البلاغيين:

نقل علماء البيان لفظ المجاز من المصدرية أو المكانية[١] إلى اصطلاحهم البلاغى فهو عندهم: الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له فى اصطلاح التخاطب لعلاقة وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

بيان التعريف:

قوله: الكلمة المستعملة، أخرج الكلمة قبل الاستعمال لأنها لا توصف بحقيقة ولا مجاز، وقوله: فى غير ما وضعت له، أخرج الحقيقة لأنها مستعملة فيما وضعت له، وقوله: فى اصطلاح التخاطب: لأن المعتبر فى الوضع وعدمه هو اصطلاح التخاطب، فلفظ الصلاة فى الدعاء عند الشرعيين مجاز، وإن كان عند اللغويين حقيقة. وقوله «علاقة» أخرج بها الغلط، لأن وضع أحد اللفظين مكان الآخر لم تراع فيه مناسبة بينهما، وإنما سبق اللسان إلى أحدهما، فليس هذا من قبيل المجاز.

والعلاقة: هى مناسبة خاصة. بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه، بها يحصل الإرتباط بين المعنى الحقيقى، والمعنى المجازى، الذى ينتقل إليه الذهن بواسطة القرينة، فالعلاقة هى التى تبرز نقل اللفظ من الأول واستعماله فى الثانى. وهى فى المجاز: إما المشابهة بين المعنين، نحو: أقبل البحر، تريد رجلا كالبحر فى العطاء؛ فلفظ البحر مستعمل فى غير ما وضع له، والعطاء هو المناسبة، أو العلاقة بين معنى البحر الأصلى وبين المعنى المستعمل فيه وهو الرجل الكريم.

---

(١) الخطيب: يرى أن المنقول عنه المكان، والمناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه هو أن هذه الكلمة طريق لحضور معناه المجازى.

وعبد القاهر: يرى أن المنقول عنه الحدث، والمناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه، أن هذه الكلمة جائزة. أو مجوز بها من المعنى المنقول عنه إلى المعنى المنقول إليه، فهو بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول.

فالخطيب يجعل النقل من مكان المجاوزة، فهى بمعنى السلوك والمرور فكأنها الطريق المجوز فيه. والإمام عبد القاهر: يجعل النقل عن المجاوزة نفسها، فهى عنده الانتقال لأنها مأخوذة من جاز المكان يجوزه بمعنى تعداه، وانتقل عنه بعد أن مر فيه. راجع اسرار البلاغة ص ٣٠٣ وما بعدها، الإيضاح جـ٣ ص ٢٦٩.

وإما غير المشابهة بين المعنيين: كما فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾(١) والشهر لا يشاهد، فاستعمال لفظ الشهر فى الهلال استعمال لهذا اللفظ فى غير ما وضع له، والعلاقة ليست المشابهة، وإنما هي السببية لأن الهلال سبب فى وجود الشهر.

والعلاقة: ينبغى أن تكون موافقة لعرف الناس، ولأذواقهم، فلا يصح أن تخرج بها فى التجوز، إلى غاية تخرج بها عن متعارف الناس، فإن ذلك يؤدى إلى التعقيد الذى ينافى البيان.

أما القرينة: فهى الأمر الذى يصرف الذهن عن المعنى الوصفى إلى المعنى المجازى، وهى إما: عقلية نحو «أقبل الأسد»، والسامع يرى رجلا مقبلا، وقولك: احذر العين، مشيراً بيدك أو مومئا برأسك إلى رجل يتجسس على أحوال الناس، أو لفظية: كقولك: بين هؤلاء العلماء شمس فى يده كتاب، فكل من بين هؤلاء العلماء، وقولك: فى يده كتاب، يصلح لأن يكون قرينة لفظية منعت كل واحدة منهما إرادة المعنى الحقيقى للشمس.

وأما إذا قلنا: رعينا الغيث، كانت كلمة «رَعَينا» قرينة على أن المراد من الغيث هو النبات ومنعت إرادة المعنى الحقيقى وهو المطر.

وهذه القرينة: شرط حسنها أن تكون معينة للمعنى المراد مفصحة عنه، كما يجب أن تكون مقارنة له فى الكلام حيث إنه يتوقف عليها فهم المعنى المراد، ومنع وقوع اللبس، وفوات المقصود.

وهكذا نجد فى كل مجاز علاقة وقرينة. حيث إن الحقيقة تدل على معناها بنفسها والمجاز يحتاج دائما إلى علاقة وقرينة(٢).

ونزيدك بيانا ووضحا لهذا الفرق بين كل من الحقيقة والمجاز بهذا المثال:

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٢) ينظر: كتاب نظرات فى البيان للدكتور محمد عبد الرحمن نجم الدين الكردى ص ١٦١ - ١٦٢، وكتابنا علم البيان بين التقعيد والتطبيق ص ١٦٨ - ١٧٠.

قال ابن العميد[١] يصف غلاما قام على رأسه يظلله من الشمس.

قامت تظللنى من الشمس نفس أعز على من نفسى

قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس[٢]

إذا تأملت البيتين وجدت أن كلمة الشمس قد ذكرت فى البيت الثانى مرتين بمعنيين مختلفين أحدهما: الشمس التى تعرفها، وهى التى تظهر فى المشرق صباحا، وتختفى عند الغروب مساءًا وتشع ضوءاً وحرارة، وهذا هو المعنى الحقيقى للشمس.

الثانى: إنسان جميل الوجه يشبه الشمس فى الإشراق، وهذا معنى مجازى، والذى سوغ للشاعر أن يطلق لفظ الشمس على ذلك الغلام الجميل وجود علاقة بينه وبين الشمس، وهى علاقة المشابهة، لأن الشخص الوضيء الوجه يشبه الشمس فى التلألؤ والإشراق.

وإذا رجعت إلى البيت مرة ثانية فستجد أن كلمة «تظللنى» تمنع من إرادة المعنى الحقيقى للشمس؛ لأن الشمس الحقيقية لا تظلل ولهذا تسمى «قرينة» لفظية تدل على المعنى الذى أراده الشاعر.

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن حسين كان يسمى بالجاحظ الثانى، والاستاذ والرئيس، ويضرب به المثل فى البلاغة وحسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها مع براعة المعنى ونفاستها، وهو الذى قيل فيه: بدئت الكتابه بعبد الحميد وختمت بابن العميد وقد استورزه آل بويه. توفى سنة ٣٦٠ هـ.

(٢) انظر البيتين فى المفتاح ص ٢٠٥، والمعاهد ص ١٧٣، وأسرار البلاغة ص ٢٤٤ والطراز للعلوى جـ١ ص ٢٠٣، وشرح التلخيص للبابرتى ص ٥٥٧.

المبحث الثاني

معنى الإخراج والظلمات والنور عند اللغويين

لما كان البحث قائما على دراسة الآيات القرآنية التى اشتملت على هذه الكلمات أو بعضها، وحيث إنه قد تعددت وتنوعت دلالات هذه الكلمات والمعانى المرادة منها فى الآيات التى وردت فيها وفقا لما يقتضيه السياق، والذى أفصح عنه المفسرون والدارسون لكتاب الله كان من المناسب وطبيعة هذه الدراسة أن أكشف النقاب فى هذه المبحث عن معانى هذه الكلمات.

أولا: معنى الإخراج:

قال صاحب اللسان[١]: الخروج: نقيض الدخول، خرج يخرج خروجا ومَخْرَجًا، فهو خارج وخَرُوجٌ وخَرَّاجٌ، وقد أخرجه وخرج به.

قال الجوهرى: قد يكون الْمَخْرَجُ موضع الخروج. يقال: خرج مَخْرَجًا حسنا، وهذا مخرجه، وأما الْمُخْرَجُ فقد يكون مصدر قولك أخرجه، والمفعول به، واسم المكان، والوقت، تقول: أخرجنى مُخْرَج صدق، وهذا مُخْرَجُه، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالميم منه مضمومة، مثل دحرج، وهذا مُدَحْرَجُنا، فشبه مُخْرَج ببنات الأربعة.

والاستخراج: كالاستنباط، وفى حديث بدر: فاخترج ثمراتٍ من قِرْبَةٍ، أى: أخرجها، وهو افتعل منه.

واخترجه واستخرجه: طلب إليه أو منه أن يخرج... واستخرجت الأرض: أصلحت للزراعة أو الغراسة – وخارج كل شىء: ظاهره[٢].

---

(١) هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة ابن منظور، يتصل نسبه برويفع بن ثابت الأنصارى، من صحابة رسول الله ﷺ. ولد ابن منظور فى القاهرة. وقيل فى طرابلس، سنة ٦٣٠هـ، وتوفى سنة ٧١١هـ وقد أجمع المترجمون له على أنه كان محدثا فقيها، عمل فى ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولى القضاء فى طرابلس، وعاد إلى مصر، وبها توفى. كانت حياته حياة جد وعمل موصول، يدل على هذا أنه ترك كتبا من تأليفه أو اختصاره بلغت خمسمائة مجلد، فكان رحمه الله فى الفقه فى المكانه التى أهلته لولاية القضاء، وفى اللغة وعلومها بما يشهد له هذا الكتاب لقد ترك وراءه مكتبة نفيسة منها مختار الأغانى اختصر فيه كتاب الأغانى، ومختصر تاريخ بغداد وغيرها ينظر مقدمة اللسان.

(٢) انظر اللسان مادة (خرج).

ثانيا: معنى الظلمات:

الظلمات جمع ظلمة، وهى ضد النور وعدمه وذهابه، هكذا عرفها أهل اللغة[١]، بذكر ضدها، وبضدها تتميز الأشياء.

قال صاحب اللسان: الظُّلْمَةُ والظُّلُمَةُ، بضم اللام: ذَهابُ النُّور، وهى خلاف النور، وجمع الظُّلْمَةَ ظُلَمٌ وظُلُمات وظُلَمات وظُلْمَات، قال الراجز:

يجلو بعينيه دجى الظُّلُمات...

وأَظْلَم القــوم: دخلوا فى الظلام، وفي التنزيل العــزيز: ﴿ **فَــإِذَا هُم مُّظْلِمُـونَ** ﴾[٢] وقوله عـز وجل: ﴿ **يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾[٣]، أى يخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى. لأن أمر الضلالة مظلم غير بين، وليلة ظلماء، ويوم مظلم شديد الشر، أنشد سيبويه:

فـأقسم أن لو التـقـينا وأنتم لكان لكم يوم من الشـر مُظْلِمُ

وأمر مظلم: لا يدرى من أين يؤتى له.

والعرب تقول لليوم الذى تلقى فيه شدةً: يوم مُظْلِمٌ، حتى إنهم ليقولون: يوم ذو كواكب، أي اشتدت ظلمته حتى صار كالليل، قال:

بنى أسد هــل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذو كواكب أشهبُ؟

وظلمات البحر: شدائده، وشعر مظلم: شديد السواد، ونبت مُظَّلم: ناضر يضرب إلى السواد من خضرته؛ قال:

فـصـبحت أرْعَلَ كـالنقـال ومُظْلِمـاً لـيـس على دمـال

وتكلم فأظلم علينا البيتُ، أى سمعنا ما نكره، وفى التهذيب: وأظلم فلانٌ علينا البيت إذا أسمعنا ما نكره، قال أبو منصور: أظلم يكون لازما وواقعا، قال،

---

(١) راجع: مختار الصحاح، مفردات القرآن، القاموس المحيط مادة (ظلم).
(٢) سورة يس الآية (٣٧).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٧).

وكذلك أضاء يكون بالمعنيين: أضاء السراج بنفسه إضاءة، وأضاء للناس بمعنى ضاء، وأضات السراج للناس فضاء وأضاء[1].

وقال الرازي: إن الظلمة عبارة عن عدم النور عن الجسم الذي من شأنه قبول النور، وليست عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور، والدليل عليه أنه إذا جلس إنسان بقرب السراج، وجلس إنسان آخر بالبعد منه، فإن البعيد يرى القريب، ويرى ذلك الهواء صافيا مضيئا، وأما القريب فإنه لا يرى البعيد، ويرى ذلك الهواء مظلما، فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية.

وإذا ثبت هذا فنقول: عدم المحدثات متقدم على وجودها، فالظلمة متقدمة في التقدير والتحقق على النور، فوجب تقديمها في اللفظ[2].

ومما يقوى ذلك ما يُروى في الأخبار الإلهية أنه تعالى: خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره[3].

فالظلمة آية كونية جعلها الله تعالى مجالا للاعتبار لما تنطوي عليه من الفوائد والمصالح، ولذلك جاءت في سياق ذكر الحمد، فقال تعالى ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾[4].

ثم استعير لفظ الظلمة في أمور معنوية تعبيرا عما يعتورها من حلكة واضطرابات وحيرة ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[5].

---

(١) انظر اللسان مادة (ظلم).

(٢) يقصد في قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ الأنعام (١).

(٣) انظر مفاتيح الغيب جـ١٢ ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٤) سورة الأنعام الآية (١).

(٥) سورة الأنعام الآية (١٢٢).

ويلاحظ أن لفظ الظلمات بمعنييها الحقيقى والمجازى كما سيتضح لنا إن شاء الله فى المبحث التالى – أكثر ذكرًا فى سورة الأنعام من سائر السور[1] وهذا ينسجم مع المطلع الذى استهلت به السورة.

ثالثا: معنى النور:

النور: هو الضوء المنتشر الذى يعين على الإبصار. وقد ورد فى القرآن الكريم باعتباره آية من آيات الله تعالى الكونية قال تعالى ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾[2]. ثم هو مستعمل أيضا فى الدلالة على أمر معنوى يهتدى به الإنسان فى هذه الحياة. قال تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾[4].

قال صاحب اللسان: فى أسماء الله تعالى النور. قال ابن الأثير: هو الذى يبصر بنوره ذو العماية، ويرشد بهداه ذو الغواية، وقيل: هو الظاهر الذى به كل ظهور، والظاهر فى نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً.

قال أبو منصور: والنور من صفات الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[5]؛ قيل فى تفسيره: هادى أهل السموات والأرض، وقيل: ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾، أى: مثل نور هداه فى قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح.

والنور: الضياء، والنور: ضد الظلمة، وفى المحكم: النور الضوء أيا كان، وقيل: هو شعاعه وسطوعه، والجمع أنوار...

ونوَّر الصبح: ظهر نوره.... وأنار المكان؛ وضع فيه النور، وقوله عز وجل:

---

(١) راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم «ظلمات».

(٢) سورة الأنعام الآية (١).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٢٢).

(٤) سورة الزمر الآية (٢٢).

(٥) سورة النور الآية (٣٥).

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[١]، قال الزجاج: معناه من لم يهده الله للإسلام لم يهتد.

والمنارُ: محجة الطريق، وقوله عز وجل: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[٢]، قيل: النور ههنا هو سيدنا محمد رسول الله ﷺ، أى جاءكم نبى وكتاب. وقيل: إن موسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، قال وقد سئل عن شيء سيأتيكم النور، وقوله عز وجل: ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾[٣]، أى اتبعوا الحق الذى بيانه فى القلوب كبيان النور فى العيون.

قال: والنور: هو الذى يبين الأشياء ويُرى الأبصار حقيقتها؛ قال: فمثل ما أتى به النبيُّ ﷺ، فى القلوب فى بيانه وكشفه الظلمات كمثل النور... وفى حديث الدعاء: «اللهم اجعل فى قلبى نوراً وباقى أعضائه» أراد ضياء الحق وبيانه، كأنه قال: اللهم استعمل هذه الأعضاء منى فى الحق، واجعل تصرفى وتقلبى فيها على سبيل الصواب والخير[٤].

---

(١) سورة النور الآية (٤٠).
(٢) سورة المائدة الآية (١٥).
(٣) سورة الأعراف الآية (١٥٧).
(٤) ينظر: اللسان لابن منظور مادة نور.

المبحث الثالث

دراسة بلاغية تحليلية لآيات الظلمات والنور فى القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة مطالب

المطلب الأول: دراسة الآيات التى تحدثت عن الإخراج من الظلمات إلى النور واشتملت على الألفاظ الثلاث: الإخراج والظلمات والنور.

المطلب الثانى: دراسة الآيات التى أشتملت على لفظى الظلمات والنور فقط.

المطلب الثالث: دراسة الآيات التى اشتملت على لفظ النور فقط.

المطلب الرابع: دراسة الآيات التى اشتملت على لفظ الظلمات فقط.

المطلب الأول

الآيات الداعية إلى الإخراج من الظلمات إلى النور

إن الله عز وجل قد أرسل حبيبه سيدنا محمداً ﷺ بدعوة الحق داعيا وهاديا، وأنزل عليه الكتاب المبين ليبين سبل الهداية التى تتحقق بها سعادتهم فى الدنيا، وتنتهى بهم إلى النعيم المقيم فى الآخرة.

وفى حديث القرآن الكريم عن هذا الكتاب بيان لجملة الوظائف والمهام التى يقوم بها فى حياة الإنسان، ومن أهم هذه الوظائف التى تضمنها كتاب الله والتى تحتاج منا إلى تأمل وظيفة الإخراج من الظلمات إلى النور.

هذه الوظيفة العظيمة تعد فى المقام الأول من مهام أمور الدعوة الإسلامية التى يجب أن يركز عليها الدعاة وخاصة فى يومنا هذا. فما أحوج العالم إلى من يخرجهم من الظلمات إلى النور. ومن الضلال إلى الهدى.

وفى هذا المطلب سأقوم بدراسة وتحليل الآيات التى ذكرت فيها تلك الوظيفة محاولا كشف اللثام عن ما فيها من صور فنية، وأسرار بلاغية تكشف عن مدى بلاغة القرآن الكريم وأسلوبه العظيم.

الآيات التى تحدثت عن الإخراج من الظلمات إلى النور ومواضعها:

إن الآيات التى تحدثت عن الإخراج من الظلمات إلى النور سبع آيات، ذكرت فى مواضع مختلفة فى القرآن الكريم، آيتان منها مكيتان، وخمس آيات مدنية.

أما المكيتان فهما:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(١).

(١) سورة إبراهيم الآية (١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(١).

وأما الآيات المدنية فهي:

الآية الأولى: قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢).

الآية الثانية: قوله جل جلاله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣).

الآية الثالثة: قوله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾(٤).

الآية الرابعة: قوله عز من قائل: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥).

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾(٦).

وقفـــة:

بالنظر في هذا التصنيف الإلهي نجد أنفسنا أمام آيتين مكيتين، وخمس آيات

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٥).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٧).
(٣) سورة المائدة الآيتان (١٥، ١٦).
(٤) سورة الأحزاب الآية (٤٣).
(٥) سورة الحديد الآية (٩).
(٦) سورة الطلاق الآيتان (١٠، ١١).

مدنية، وهو أمر يدعو إلى التأمل والتساؤل، والذى يظهر -والله أعلم بمراده- أن الإخراج نوعان: نوع يتعلق بالناس كافة، حيث إن الدعوة تتجه إلى إخراجهم من أحلك الظلمات، وهى ظلمة الكفر إلى نور الإيمان يقول تعالى: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** ﴾(١)، يقول جل شأنه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ** ﴾(٢).

ونوع آخر يتعلق بإخراج الذين آمنوا.

وقد عبر القرآن الكريم بلفظ ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ فى ثلاث آيات، وبالضمير العائد عليهم فى آيتين، وكلها مدنية، بينما عبر بلفظ ﴿ **الناس** ﴾ فى آية واحدة، وعبر بلفظ القوم عند الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام. وهما فى سورة واحدة مكية.

إن التوجه بالخطاب إلى عموم الناس يختلف عن التوجه به إلى المؤمنين خاصة، وذلك لأن الإيمان يستلزم بمجرد النداء، والخطاب به مفهوم الاتباع، ويُذَكِّرُ بمحور العلاقة التى تربط المسلم بالشريعة. وهذا الأمر -إن شاء الله- سنزيده بيانا وإيضاحًا - عند دراسة وتحليل هذه الآيات.

إن اقتران الظلمات والنور بلفظ الإخراج يعطى هذا التعبير أبعادًا دلالية متميزة، حتى إنه يمكن اعتباره مصطلحا قرآنيا، يتجاوز الدلالة اللغوية العامة، ويقرر مجموعة من القواعد التى كانت اللغة قبل نزول الوحى تخلو منها بصفة مطلقة.

فهذا المصطلح بألفاظه الثلاثة المكونة له: الإخراج، والظلمات، والنور، وبأداتى الربط «من» و«إلى» يكشف عن عملية ضخمة تجرى فى حياة الإنسان بالإسلام، كما أنه بمراجعة هذا المصطلح فى سياقاته المختلفة فى القرآن الكريم تتبين مجموعة من العناصر الأساسية فى إنجاز تلك العملية. فإلى تلك الآيات سالفة

(١) سورة آل عمران الآية (١٩٣).
(٢) سورة غافر الآية (١٠).

الذكر ندرسها ونحللها للتعرف على ما فيها من إيحاءات ولطائف وأسرار من خلال ما ذكره المفسرون.

أولا: الآيات المكية:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ **الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾[1].

المعنى العام للآية:

قوله تعالى ﴿ **الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** ﴾ أى: هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف كتاب أنزلناه إليك يا محمد – وهو القرآن العظيم الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم. لم تنشئه أنت. أنزلناه إليك لغاية ﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾. أى: لتخرج الناس مما هم فيه من الظلمات: ظلمات الضلال والغى والوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة، وفى اضطراب التصورات والقيم والموازين، لنخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور، النور الذى يكشف هذه الظلمات. يكشفها فى عالم الضميره وفى دنيا التفكير فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد.

فالإيمان بالله نور يشرق فى القلب، فيشرق به هذا الكيان البشرى، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله. والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق واضحة إلى الله لا يشوبها غبش، ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام وضباب الخرافات. أو غبش الشهوات وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب، ولا تتردد ولا تحتار.

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة، فإذا الناس كلهم عباد متساوون، تربط

---

(١) سورة إبراهيم الآية (١).

بينهم أصرتهم فى الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة، وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة، معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه، فإذا هم فى سلام مع الكون وما فيه ومن فيه.

والإيمان بالله نور. نور العدل، ونور الحرية، ونور المعرفة، ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته فى السراء والضراء، ذلك الاطمئنان الذى يستتبع الصبر فى الضراء، والشكر فى السراء على نور من إدراك الحكمة فى البلاء.

والإيمان بالله وحده إلها وربًا منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور؛ منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده، والدينونة لربوبيته وحده، والتخلص من ربوبيات العبيد، والاستعلاء على حاكمية العبيد.

وفى هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ما يملأ الحياة سعادة ونورًا وطمأنينة وراحة، كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصمًا من التقلبات والتخبطات التى تتعرض لها المجتمعات التى تخضع لربوبية العبيد، وحاكمية العبيد.

وإن وراء هذا التعبير القصير: ﴿**لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..**﴾ لآفاقا بعيدة لحقائق ضخمة عميقة فى عالم العقل والقلب. وفى عالم الحياة والواقع، لا يبلغها التعبير البشرى ولكنه يشير إليها إشارة.

وقوله تعالى: ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾ يشير إلى أن الرسول ﷺ ليس فى قدرته إلا البلاغ، وليس من وظيفته إلا البيان، أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور فإنما يتحقق بإذن الله وفق سنته التى ارتضتها مشيئته، وما على الرسول إلا البلاغ، فالله سبحانه هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم.

قوله: ﴿**إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾. قال الزمخشرى: إنه بدل من قوله: ﴿**إِلَى النُّورِ**﴾ بتكرير العامل كقوله ﴿**للذين استضعفوا لمن آمن منهم**﴾، ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل إلى أى نور فقيل إلى صراط العزيز الحميد[١].

---

(١) ينظر الكشاف جـ٢ ص ٢٩٠ دار المعرفة بيروت - لبنان.

فالصراط بدل من النور. وصراط الله: طريقه، وسنته، وناموسه الذى يحكم الوجود، وشريعته التى تحكم الحياة، والنور يهدى إلى هذا الصراط، أو النور هو الصراط، وهو أقوى فى المعنى، فالنور المشرق فى ذات النفس هو المشرق فى ذات الكون.. والنفس التى تعيش فى هذا النور لا تخطىء الإدراك، ولا تخطىء التصور، ولا تخطىء السلوك، فهى على صراط مستقيم.. ﴿**صراط العزيز الحميد**﴾ مالك القوة المسيطر الذى لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، المحمود المشكور، والقوة قد أبرزت هنا لتهديد من يكفرون، والحمد أبرز لتذكير من يشكرون[1].

دراسة وتحليل:

فى التعبير بإلى دون على فى قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ**﴾ إشارة إلى مهمة الرسول ﷺ الكبرى وهى دعوة الناس إلى عبادة ربهم وهدايتهم إلى طريق الحق والصواب. يقول الإسكافى «أكثر المواضع الذى ذكر فيها إنزال القرآن على النبى ﷺ عدى بعلى كقوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب**﴾ وأكثر ما جاء ذكر إنزاله على الناس جاء معدى بإلى كقوله: ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا**﴾ ثم كل موضع قيل فيه: أنزلنا إليك فقد شدد فيه التكليف عليه، ونُزِّل منزلة أمته فيما يجب على عالمهم تبينه لمتعلمهم كقوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين**﴾ فقد أمر بإخلاص العبادة، والمراد هو وأمته، وكقوله: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾؛ فكان المراد فى المواضع التى استعملت فيها إلى أنه تناهى إلى حيث لا متعدى وراءه من عالم سنة مقصورة عليه»[2].

ذكر فاعل الإنزال فى قوله ﴿**أنزلناه**﴾ وهو معلوم أنه الله سبحانه وتعالى؛

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب جـ٤ ص ٢٠٨٥، ٢٠٨٦ دار الشروق بتصرف.

(٢) ينظر: غرة التنزيل ودرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للإسكافى ص ٣١٤، ط: الأولى سنة ١٣٢٧هـ.

لأن المقام مقام الامتنان على الناس المستفاد من التعليل بقوله ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ ومن ذكر صفة الربوبية بقوله ﴿ بإذن ربهم ﴾ .

أما التعرّض للمنزل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليجعل له حظ في هذه المنة وهو خط الوساطة . ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين للنبي ﷺ .

وأسند الإخراج إلى النبي ﷺ في قوله ﴿ لتخرج الناس ﴾ لأنه يبلغ الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر . . وإذ قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه عُلم أن إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل، لما يشمل عليه من معاني الهداية .

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات إلى النور دل على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله ومن ضل فبإيثار الضال هوى نفسه على دلائل الإرشاد .

والإخراج : مستعار للنقل من حال إلى حال ﴿ والظلمات والنور ﴾ استعارتان تصريحيتان للكفر والإيمان، لأن الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل . وقد يستخلص السامع من ذلك تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة، وحال إنتقاله إلى الإيمان بحال الخارج من ظلمة إلى مكان نيرّ .

والباء في ﴿ بإذن ربهم ﴾ للسببية، وإضافة الإذن إلى وصف الرب المضاف إلى ضمير الناس . إشارة إلى أن الإرسال لمصلحتهم فهو ربهم الذي يدبر مصالحهم .

وقوله ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ بدل من النور بإعادة الجار للمبدل منه لزيادة بيان المبدل منه اهتماما به – وفي كلمة ﴿ الصراط ﴾ إستعارة تصريحية للدين الحق حيث شبه الدين الحق بالصراط لأن كلا منهما موصل للغاية من أقرب طريق . وإستعارة الصراط للدين الحق جاءت مناسبة لإستعارة الإخراج والظلمات والنور . لما يتضمنه من التمثيل .

واختير وصف ﴿ العزيز الحميد ﴾ من بين الصفات العُلى لمزيد مناسبتها

للمقام؛ لأنه العزيز الذى لا يُغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس، فهو به غالب للمخالفين مقيم الحجة عليهم.

والحميد بمعنى المحمود. لأن فى إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه، وبذلك استوعب الوصفات الإشارة إلى الفريقين من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة وقضاء الحيلة[1].

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

المعنى العام للآية:

يقول الله تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم وتدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل بآياتنا.قال ابن كثير: قال مجاهد: «وهى التسع الآيات» وقوله تعالى ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: أمرناه قائلين له: ادع قومك إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى: بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره، وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنَّ والسلوى، إلى غير ذلك من النعم.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. أى أن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار فى الضراء، شكور فى السراء[3].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور المجلد السابع ط تونس ص ١٨٠، ١٨١ بتصرف.

(٢) سورة إبراهيم الآية (٥).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢ ص ٥٢٣ مكتبة التراث الإسلامى بتصرف.

وفيه عبرة أيضا لكل مؤمن لأن الصبر والشكر من سجاياهم وسمة من سماتهم، ذلك أنه إذا ما سمع أحدهم بما أنزل الله من البلاء على الأمم، وأفاض عليهم من النعم تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر.

دراسة وتحليل:

أكد الإخبار عن إرسال موسى عليه السلام بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة سيدنا محمد ﷺ منزلة من ينكر رسالة موسى عليه السلام لأن حالهم في التكذيب برسالة سيدنا محمد ﷺ يقتضي ذلك التنزيل، لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل، على أن منهم من قال ﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾(١).

و (أن) تفسيرية، فسر الإرسال بجملة ﴿ **أخرج قومك** ﴾ .. إلخ والإرسال فيه معنى القول ﴿ **والظلمات** ﴾ مستعار للشرك والمعاصي، و ﴿ **النور** ﴾ مستعار للإيمان الحق والتقوى، فهما استعارتان تصريحيتان حقيقيتان.

والتذكير: إزالة نسيان شيء. ويستعمل في تعليم مجهول كان شأنه أن يعلم والمقصود ب ﴿ **أيام الله** ﴾ أيام ظهور قدرته وإهلاكه الكافرين به، ونصرة أولياءه والمطيعين له. والمراد بأيام الله هنا: الأيام التي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخر لهم أسباب الفوز والنصر، وأغدق عليهم النعم في زمن موسى عليه السلام، فإن ذلك كله مما أمر موسى عليه السلام بأن يذكر به قومه. وكله يصح أن يكون تفسيراً لمضمون الإرسال.

واسم الإشارة في قوله ﴿ **إن في ذلك لآيات** ﴾ عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير؛ فالإخراج من الظلمات بعد ترغلهم فيها، وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها آية من آيات قدرة الله تعالى. والتذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله، وعزته وتأييد من أطاعه. وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله(٢).

(١) سورة الأنعام. الآية (٩١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور جـ٧ ص ١٩٠.

وقد أحاط بمعنى هذا الشمول حرف الظرفيه من قوله ﴿ **في ذلك** ﴾؛ لأن الظرفية تجمع أشياء مختلفة يحتويها الظرف. ولذلك كان لحرف الظرفية هنا موقع بليغ.

ولما كانت الآيات مختلفة، بعضها آيات موعظة وزجر، وبعضها آيات منة وترغيب، جعلت متعلقة بكل صبار شكور، إذ الصبر مناسب للزجر... والإنعام يبعث على الشكر، فكان ذكر الصفتين توزيعا لما أجمله ذكر أيام الله من أيام بؤس، وأيام نعيم[1].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٧ ص ١٩١ بتصرف.

ثانيا: الآيات المدنية:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

المعنى العام للآية:

يخبر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة أنه ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولى أمورهم، يخرجهم من ظلمات الضلالة والغواية والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين، السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات يخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك والضلال فكان جزاؤهم النار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً.

دراسة وتحليل:

المتأمل فى السياق الذى جاءت عليه هذه الآية الكريمة يلمس مدى عظم نظمها وجمال نسقها لقد صورت فى مشهد حسى حى متحرك طريق الهدى وطريق الضلال، وكيف يكون الهدى، وكيف يكون الضلال، صورت أيضا كيف يأخذ الله بأيد المؤمنين فيخرجهم من الظلمات إلى النور، بينما الطواغيت أولياء الذين كفروا تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور إلى الظلمات.

يقول صاحب ظلال القرآن: «إنه مشهد عجيب حى موح، والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء، جيئة من هنا وذهابا من هناك، بدلا من التعبير الذهنى المجرد، الذى لا يحرك خيالا، ولا يلمس حسًّا، ولا يستجيش وجدانا، ولا يخاطب إلا الذهن بالمعانى والألفاظ.

فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية، فلنحاول أن نضع فى مكان

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٧).

هذا المشهد الحى تعبيرًا ذهنيًا أيًا كان. لنقل مثلا: الله ولى الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران.. إن التعبير يموت بين أيدينا، ويفقد ما فيه من حرارة وحركة وإيقاع[١].

وقد وقعت هذه الآية موقع التعليل لقوله تعالى ﴿**لا انفصام لها**﴾ لأن الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله قد تولّوا الله تعالى فصار وليهم، فهو يقدّر لهم ما فيه نفعهم، وهو ذب الشهوات عنهم، فبذلك يستمر تمسكهم بالعروة الوثقى ويأمنون انفصامها، أى: فإذا اختار أحد أن يكون مسلما فإن الله يزيده هدى.

وقد ذهب صاحب الكشاف[٢] إلى تأويل الذين آمنوا والذين كفروا بالذين أرادوا ذلك، وجعل النور والظلمات تشبيها للإيمان والكفر، إذ يقول: ﴿**الله ولى الذين آمنوا**﴾ أى: أرادوا أن يؤمنوا يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان ﴿**والذين كفروا**﴾ أى صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك[٣].

والأولى عدم التأويل لظهور المعنى بما يدفع الحاجة إلى التأويل بذلك، ولا يحسن وقعه بعد قوله: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله**﴾ ولقوله تعالى ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾ فإنه متعين للحمل على زيادة تضليل الكافر فى كفره بمزيد الشك. وعليه يمكن أن نقول. المراد بالنور نور البرهان والحق، وبالظلمات ظلمات الشبهات والشك، فالله يزيد الذين اهتدوا هدى؛ لأن اتباعهم الإسلام تيسير لطرق اليقين فهم يزدادون توغلا فيها يوما فيوما، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام فإن اختيارهم ذلك دل على ختمْ ضُرب على عقولهم فلم يهتدوا، فهم يزدادون فى الضلال يوما

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن جـ١ ص ٢٩٢ ط الشروق.

(٢) هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى، الزمخشرى جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، كان معتزلى المذهب، توفى سنة ٥٣٨هـ. انظر ترجمته فى الإنسان للسمعانى الورقة (٢٧٧) ومعجم البلدان فى مادة: زمخشر، ومعجم الأدباء جـ١٩ ص ١٢٦.

(٣) ينظر: الكشاف جـ١ ص ١٥٥.

فيوما. ولأجل هذا الازدياد المتجدد فى الأمرين وقع التعبير بالمضارع فى « يخرجهم ويخرجونهم »[١].

وفى قوله تعالى: ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وعد وتحذير للكافرين، ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين -كما قيل- للإشعار بتعظيمهم، وأن أمرهم غير محتاج إلى البيان، وأن شأنهم أعلى من مقابلة هؤلاء، أو أن ما أعد لهم لا تفى ببيانه العبارة وقيل: إن قوله سبحانه ما معناه ﴿ **ولى المؤمنين** ﴾ دل على الوعد وكفى به[٢].

لأنه من كان الله وليه، فإن ما أعده له من النعيم والخير العظيم لا يحد بوصف.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[٣].

المعنى العام:

كان أهل الكتاب يستعظمون أن يدعوهم إلى الإسلام نبى ليس منهم، نبى من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل؛ لأنهم أهل كتاب وهؤلاء أميون، فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة، الشاملة للبشر أجمعين، وعَلَّم الأميين، فإذا هم أعلم أهل الأرض، وأرقاهم تصوراً واعتقاداً، وأقومهم منهجا وطريقا، وأفضلهم شريعة ونظاما،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٣ ص ٣٠.

(٢) ينظر: روح المعانى للالوسى المجلد الثانى دار الغد العربى ص ٢٥٧.

(٣) سورة المائدة: الآيتان (١٥، ١٦).

وأصلحهم مجتمعا وأخلاقا، وكان هذا كله من فضل الله عليهم، ومن إنعامه بهذا الدين وارتضائه لهم.

وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام، مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه، كما أخذ عليهم ميثاقه، ويسجل عليهم شهادته بأن هذا النبى الأمى هو رسوله إليهم كما أنه رسول إلى العرب وإلى الناس كافة، فلا مجال لإنكار رسالته، ولا مجال للإدعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب. فهو رسول الله إليكم يا أهل الكتاب، ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذى معكم.. سواء فى ذلك اليهود والنصارى، وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين هو التوحيد، وأخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة، كرجم الزانى، وتحريم الربا كافة، كما أخفوا جميعا خبر بعثة النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، كما أنه ﷺ يعفو عن كثير مما أخوفه، أو حرفوه، مما لم يرد به شرعه.

فهو صلى الله عليه وسلم يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه[١].

قال فى التسهيل: «وفى الآية دليل على صحة نبوته لأنه بين ما أخفوه فى كتبهم وهو أميّ لم يقرأ كتبهم»[٢].

وقال السيوطى: أخرج ابن جرير عن عكرمة قال إن نبى الله صلى الله عليه وسلم أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: «أيكم أعلم فاشاروا إلى ابن صوريا فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى، والذى رفع الطور والمواثيق التى أخذت عليهم حتى أخذه أفكل، فقال: إنه لما كثر فينا جلدنا مائة، وحلقنا الرؤس فحكم عليهم بالرجم»[٣].

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٢ ص ٨٦٢. (٢) ينظر: التسهيل جـ١ ص ١٧٢.

(٣) ينظر: لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى على هامش تفسير الجلالين جـ١ ص ١٠٩ الحلبى.

قوله تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ قال القرطبي: «أي ضياء؛ وقيل: الإسلام، وقيل: محمد عليه السلام؛ عن الزجاج»[١] ﴿ وكتاب مبين ﴾. أي القرآن، لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك، وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أي: يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الإستقامة ويخرجهم من ظلمات الكفر والجهالة والتخبط إلى نور الإيمان واليقين بتوفيقه وإرادته يقول ابن كثير: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة[٢].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **يا أهل الكتاب** ﴾ دون أن يقول يا بني إسرائيل فيه حث على أن يعوا ما في كتبهم فقد دعاهم فيها رب العالمين إلى أتباع نبيه ﷺ. كما يفيد الدعوة إلى تذكيرهم ووعظهم. والإضافة في قوله تعالى: ﴿ **قد جاءكم رسولنا** ﴾ تفيد تشريفه وتكريمه ﷺ وأنه حقيق باتباعه والإستجابة له. لأنه مبلغ عن الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿ **يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير** ﴾ وقع موقع الوصف للرسول ﷺ يفيد إقامة الحجة عليهم. ويؤكد صدق رسالته.

ومعنى «يعفو» يُعرض ولا يظهر، وهو أصل مادة العفو. يقال: عفا الرسم، بمعنى لم يظهر، وعفاه: أزال ظهوره. ثم قالوا: عفا عن الذنب، بمعنى أعرض، ثم قالوا: عفا عن المذنب؛ بمعنى ستر عنه ذنبه[٣].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: جـ٣ ص ٢١١٥ دار الشعب.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢ ص ٣٤ مكتبة التراث الإسلامي.

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور مادة (عفو).

وقال صاحب التحرير والتنوير: يجوز أن يراد هنا معنى الصفح والمغفرة، أى: ويصفح عن ذنوب كثيرة، أى: يبين لكم دينكم، ويعفو عن جهلكم[١].

وقوله ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿ **قد جاءكم رسولنا** ﴾؛ لأن مجىء الرسول اشتمل على مجىء الهدى والقرآن، وقد أعيد حرف (قد) الداخل على الجملة المبدل منها زيادة فى تحقيق مضمون جملة البدل.

والنور فى الآية: قيل: القرآن. وقيل الضياء، وقيل: هو النبى ﷺ، وقيل الإسلام[٢] وضمير «به» راجع إلى الرسول ﷺ أو إلى الكتاب المبين.

وسبل السلام: طرق السلامة التى لا خوف على السائر فيها، وهى إستعارة لطرق الحق والظلمات والنور إستعارة للضلال والهدى، والصراط المستقيم مستعار للإيمان[٣] بجامع أن كلا منهما موصل للغاية المرجوة من أقرب طريق. فسبحان من هذا كلامه.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾[٤].

المعنى العام للآية:

قال السيوطى: أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله ما أنزل الله عليك خيرا إلا أشركنا فيه، فنزلت ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾[٥]. ففى هذه الآية

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٥٠.
(٢) ينظر: تفسير الجلالين جـ١ ص ٦٥، تفسير القرطبى جـ٢ ص ٢١١٥.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٣١.
(٤) سورة الأحزاب الآية (٤٣).
(٥) ينظر: لباب النقول فى أسباب النزول بهامش تفسير الجلالين جـ٢ ص ٧٣ مطبعة الحلبى.

الكريمة يخبر الله تعالى أنه يصلى هو وملائكته على الذين آمنوا، قال ابن كثير: «الصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة، وقيل: الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار»(١). فالمعنى إذًا: هو أن الله عز وجل بفضله وكرمه ورحمته يرحم الذين آمنوا على الدوام، ويعتنى بأمرهم، وبكل ما فيه صلاحهم وفلاحهم، وملائكته يدعون ويستغفرون ويطلبون الرحمة لهم لينقذهم بسبب ذلك من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. وكان بالمؤمنين رحيما أى: واسع الرحمة بالمؤمنين فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ومن سعة رحمته أن يقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، لإخلاصهم فى إيمانهم، وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم، وفى صحيح البخارى عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها، وأرضعته، فقال ﷺ: «فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها»(٢).

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿**هو الذى يصلى عليكم وملائكته**﴾ استئناف جار مجرى التعليل والتهييج للأمر بذكر الله وتسبيحه فى الآيتين السابقتين على هذه الآية بأن ذلك مجلبة لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه من جنسه وهو صلاته وصلاة ملائكته. والمعنى أن الله يصلى عليكم، وملائكته إذا ذكرتموه كثيرا، وسبحتموه بكرة وأصيلا(٣).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤٩٥، ٤٩٦.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤٩٦ بتصرف.

(٣) ينظر: تفسير ابى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ٤ ص٢٠٧ الطبعة الأولى والتحرير والتنوير جـ١١ ص ٤٤ بتصرف.

قال ابن كثير: هذا تهييج إلى الذكر. أي: أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله عز وجل ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾[1] وقال النبي ﷺ « يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه »[2].

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى ﴿ **هو الذي يصلي عليكم** ﴾ لإفادة التقوّي وتحقيق الحكم، والمقصود تحقيق ما تعلق بفعل « يصلي » من قول ﴿ **ليخرجم من الظلمات إلى النور** ﴾.

وعبر بالفعل المضارع « يصلي » لإفادة تكرار الصلاة وتجددها كلما تجدد الذكر والتسبيح، أو إفادة تجددها بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين، وملاحظة إيمانهم.

واللام في قوله تعالى ﴿ **ليخرجكم** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **يصلي** ﴾ وقد أفاد هذا التعلق أن هذه الصلاة وما يترتب عليها من دوام الهداية والرحمة جزاء عاجل حاصل وقت ذكرهم وتسبيحهم.

والمراد بالظلمات: الضلالة، وبالنور: الهدى، وبإخراجهم من الظلمات: دوام ذلك والاستزادة منه؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[3].

وقوله ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ الذي ذيل به الآية الكريمة بما فيه من كان وخبرها أفاد ثبوت ذلك الخبر له تعالى وتحققه وأنه شأن من شئونه المعروف بها.

ورحمته سبحانه بالمؤمنين أعم من صلاته عليهم؛ لأنها تشمل إسداء النفع إليهم، وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف[4].

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (١٥١، ١٥٢).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤٩٥.
(٣) سورة محمد الآية (١٧).
(٤) ينظر التحرير والتنوير جـ١١ ص ٤٩، ٥٠ بتصرف.

يقول أبو السعود في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أي كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما؛ ولذلك يفعل بكم ما يفعل من الإعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة، ويهديكم إلى الإيمان والطاعة، أو كان بكم رحيما، على أن المؤمنين مظهرٌ وضع موضع المضمر مدحا لهم، واشعاراً بعلة الرحمة»(١).

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢).

المعنى العام للآية:

هذه الآية الكريمة لها تعلق بالآيتين اللتين قبلها وهما قوله تعالى: ﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾(٣).

ففي هذه الآيات أمر من الله تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار عليه، وحثٌ على الإنفاق مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي مَنْ قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد سبحانه وتعالى إلى إستعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

وقوله تعالى: ﴿ **مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلَّفًا عنك فلعل من وراءك ممن سيرثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصى الله فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان.

(١) ينظر تفسير ابى السعود جـ٤ ص ٢١٣، ٢١٤ الطبعة الأولى ١٩٢٨ المطبعة المصرية بالأزهر.
(٢) سورة الحديد الآية (٩).
(٣) سورة الحديد الآيتان (٧، ٨).

ذكر ابن كثير أن الإمام أحمد قال: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت قتادة يحدث عن مطرف يعنى ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾؛ يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟» ورواه مسلم من حديث شعبة به وزاد؛ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[1].

فالأموال التى بين أيديكم فى الحقيقة هى لله لا لكم قال صاحب التسهيل: يعنى أن الأموال التى بأيديكم إنما هى أموال الله لأنه خلقها، ولكنه متَّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه»[2].

والمقصود التحريض على الإيمان والإنفاق والتزهيد فى الدنيا، ولهذا قال بعده ﴿ **فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾. أى: فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق والإنفاق فى سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم لهم أجر عظيم، وهو الجنة.

قال أبو السعود: وفى الآية من المبالغات ما لا يخفى، حيث جعل الجملة اسمية ﴿ **فالذين آمنوا** ﴾، وأعيد ذكرُ الإيمان والإنفاق ﴿ **آمنوا وأنفقوا** ﴾، وذكر الإسناد ﴿ **لهم** ﴾ وفخَّم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير ﴿ **لهم أجر كبير** ﴾[3].

ثم قال تعالى: ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم؟** ﴾. أى: وأىُّ شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، فالاستفهام فى الآية للإنكار والتوبيخ أى. أىُّ عذر لكم فى ترك الإيمان بالله والحال أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة[4].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٥.
(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل جـ٤ ص ٩٥.
(٣) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٥ ص ١٣٦.
(٤) ينظر: صفوة التفاسير جـ١٧ ص ٧٧.

قال ابن كثير ذكر البخارى أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟ قالوا الملائكة قال وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا الأنبياء؛ قال: وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم قالوا فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما جاء فيها»(١).

وقوله تعالى: ﴿**وقد أخذ ميثاقكم**﴾. أى: وقد أخذ الله ميثاقكم وهو العهد المؤكد بما ركز فى العقول من الأدلة الدالة على وجود الله تعالى.

قال أبو السعود: قوله تعالى ﴿**وقد أخذ ميثاقكم**﴾ حال من مفعول «يدعوكم» أى: وقد أخذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان من قبل، وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر، وقُرِئَ وقد أُخِذَ مبنيا للمفعول برفع ميثاقكم(٢).

وقال الخازن: أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم، وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وقيل: أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول(٣).

وقوله تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ شرط حذف جوابه، أى: إن كنتم مؤمنين فى وقت من الأوقات فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى بعض الأدلة على وجوب الإيمان بالله ورسوله فقال: ﴿**هو الذى ينزل على عبده آيات بينات**﴾ فهذه الآية من الأدلة الدافعة على وجوب الإيمان، ومعنى الآية الكريمة: هو أن الله تعالى ينزل على سيدنا محمد ﷺ القرآن العظيم، المعجز فى بيانه، الواضح فى أحكامه.

قال القرطبى: يريد بالآيات البينات القرآن، وقيل: المعجزات. أى: لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات، والقرآن أكبرها وأعظمها(٤).

(١) ينظر: تفسيير ابن كثير جـ٤ ص ٣٠٥.
(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٥ ص ١٣٧.
(٣) ينظر: تفسير الخازن جـ٤ ص ٣١.
(٤) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٧ ص ٢٣٩.

وقوله تعالى ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾. أى: ليخرجكم الله تعالى، أو العبد بها من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين.

﴿ **وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾ أى: مبالغ فى الرأفة والرحمة بكم، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية[1].

دراسة وتحليل:

فى قوله تعالى: ﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ بيان لعلة إنزال القرآن الكريم وغيره من الدلائل الواضحة على وجوب الإيمان بالله.

ذكر الفخر الرازى عن القاضى: قوله: بين بذلك أن مراده بإنزال الآيات البينات التى هى القرآن، وغيره من المعجزات أن يخرجهم من الظلمات إلى النور[2].

فجملة ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ تعليل وبيان لسبب نزول الآيات البينات على رسول الله ﷺ.

والظلمات: إستعارة عن الكفر والضلال والجهل، والنور إستعارة عن الإيمان والهدى والرشاد.

قال صاحب التحرير والتنوير عن هذه الآية: إنها استئناف ثالث انتقل به الخطاب إلى المؤمنين... والخطاب هنا وإن كان صالحا لتقرير ما أفادته جملة ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** ﴾ ولكن أسلوب النظم وما عطف على هذه الجملة يقتضيان أن تكون استئنافا انتقاليا هو من حسن

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير جـ١٧ ص ٧٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب جـ٥١ ص ٣٦٨.

التخلص إلى خطاب المسلمين، ولا تفوته الدلالة على تقرير ما قبله، لأن التقرير يحصل من انتساب المعنيين: معنى الجملة السابقة، ومعنى هذه الجملة الموالية".

فهذه الجملة بموقعها ومعناها وعلتها، وما عُطف عليها أفادت بيانا وتأكيدا وتعليلا وتذليلا وتخلصا لغرض جديد، وهى أغراض جَمَعَتْها جمعا بلغ حد الإعجاز فى الإيجاز، مع أن كل جملة منها مستقلة بمعنى عظيم من الاستدلال، والتذكير والإرشاد والامتنان.

والرءوف: من أمثلة المبالغة فى الاتصاف الرأفة، وهى كراهية إصابة الغير بضر، والرحيم: من الرحمة وهى محبة إيصال الخير إلى الغير[1].

وتأكيد الخبر بـ (إن) واللام فى قوله تعالى ﴿ وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ يدل على عظيم رأفة الله ورحمته بعباده.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا** ﴾[2].

المعنى العام:

قوله تعالى ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب** ﴾ أى: فخافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أصحاب العقول السليمة الراجحة ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ أى: أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكراً** ﴾ أى: قد أنزل الله إليكم وحيا يتلى وهو القرآن الحكيم.

﴿ **رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات** ﴾ أى: وأرسل إليكم رسولاً، وهو

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٧٢.
(٢) سورة الطلاق. الآيتان (١٠، ١١).

محمد ﷺ يقرأ عليكم آيات الله، واضحات جليات، تبين الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام. ذكر أبو السعود عدة أقوال فى المراد بالذكر فى قوله تعالى ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكرا** ﴾ فقال: هو جبريل عليه السلام، سمى به لكثرة ذكره، أو لنزوله بالذكر الذى هو القرآن، كما ينبىء عنه إبدال قوله تعالى ﴿ **رسولا** ﴾ منه، أو لأنه مذكور فى السموات وفى الأمم، أو أريد بالذكر الشرف كما فى قوله تعالى: ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ كأنه فى نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله تعالى كقوله تعالى: ﴿ **عند ذى العرش مكين** ﴾، أو هو النبى ﷺ، وعليه الأكثر عبر عنه بالذكر لمواظبته على تلاوة القرآن، أو تبليغه والتذكير به، وعبر عن إرساله بالإنزال بطريق الترشيح أو لأنه مسبب عن إنزال الوحى إليه، وأبدل منه رسولا للبيان، أو هو القرآن، ورسولا منصوب بمقدر مثل أرسل، أو بذكر اعلى اعمال المصدر المنون، أو بدل منه على أنه بمعنى الرسالة »[١].

واختار ابن عطية وصاحب البحر المحيط أن المراد بالذكر القرآن الكريم، وبالرسول محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره وأرسل رسولا[٢]. وهذا ما أميل إليه لأنه الظاهر. والله أعلم بمراده. وقوله تعالى: ﴿ **ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور** ﴾. أى ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا** ﴾ أى: ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته فيلتزم ما أمره به، ويجتنب ما نهاه عنه ﴿ **يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى يدخله فى الآخرة جنات النعيم، تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ **قد أحسن الله له رزقا** ﴾ أى: قد طيب الله رزقهم فى الجنة ووسعه لهم، لأن نعيمها دائم لا ينقطع.

ذكر صاحب كتاب صفوة التفاسير نقلا عن الطبرى قوله: « أى وسع لهم فى

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٥ ص ١٧٢.
(٢) ينظر: البحر المحيط جـ٨ ص ٢٨٦.

الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعد لأوليائه فيها فطيبه لهم»[١].

دراسة وتحليل:

في نداء المؤمنين بوصف ﴿**أولي الألباب**﴾ في قوله تعالى ﴿**فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا**﴾ إيماء إلى أن العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله لأنها كمال نفساني، ولأن فوائدها حقيقية دائمة، ولأن بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة يشهد لذلك قوله تعالى ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾.

والذين آمنوا بدل من ﴿**أولي الألباب**﴾. وهذا الإتباع يومىء إلى أن قبولهم الإيمان عنوان على رجاحة عقولهم. والاتيان بصلة الموصول إشعار بأن الإيمان سبب للتقوى، وجامع لمعظمها، ولكن للتقوى درجات هي التي أمروا بأن يحيطوا بها[٢].

قوله تعالى: ﴿**قد أنزل الله إليكم ذكراً**﴾ فيه معنى التعليل للأمر بالتقوى؛ لأن في إنزال الكتاب نفع عظيم لهم يستحق الشكر منهم عليه. وتأكيد الخبر بقد.

كما أفاد تأكيد الخبر بقد الاهتمام به وحث النفوس على تصفح هذا الكتاب، ومتابعة إرشاد الرسول ﷺ.

وكلمة الذكر المراد بها القرآن عند أكثر المفسرين وهو ما أميل إليه، لأن القرآن قد سمي بالذكر في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾[٣] وقوله سبحانه ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ**﴾[٤] وسمي بذلك لأنه

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير جـ١٨ ص ٧٥، وتفسير الطبري جـ٢٨ ص ٩٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٣٦.

(٣) سورة الحجر: الآية (٦).

(٤) سورة النحل الآية (٤٤).

يتضمن تذكير الناس بما هم فى غفلة عنه من دلائل التوحيد، وما يتفرع عنها من حسن السلوك، ثم تذكيرهم بما تضمنه من التكاليف.

والمراد بإنزال القرآن تبليغه إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل، واستعير له الإنزال؛ لأن الذكر مشبه بالشيء المرفوع فى السموات[١]، ففيه استعارة تصريحية تبعية فى الفعل أنزل، وجعل إنزال الذكر إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا به وعملوا بما فيه، فخصصوا هنا من بين جميع الأمم؛ لأن القرآن أنزل إلى الناس كلهم.

وجعلت علة إنزال الذكر إخراج المؤمنين الصالحين من الظلمات إلى النور، وإن كانت علة إنزاله إخراج جميع الناس من ظلمات الكفر، وفساد الأعمال إلى نور الإيمان والأعمال الصالحات، نظرا لخصوص الفريق الذى انتفع بهذا الذكر اهتماما بشأنهم، وليس ذلك بدال على أن العلة مقصورة على هذا الفريق من الناس، ولكنه مجرد تخصيص بالذكر[٢].

أو أن المراد بالظلمات هنا ظلمات المعاصى والمخالفات إلى نور الطاعات والهدايات.

والمراد بالرزق فى قوله تعالى: ﴿ **قد أحسن الله له رزقا** ﴾ كل ما ينتفع به من مأكل ومشرب وملبس وخلافه. وتنكيره هنا أفاد التعظيم والتكثير؛ أى: رزقا كثيرا عظيما.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٣٧.
(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٣٨ بتصرف.

تعقيب

بالنظر والتأمل فى الآيات السابقة، وبعد دراستها وتحليلها تبين أنه أسند فعل الإخراج إلى الله تعالى فى قوله عز وجل ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1]. وفى قوله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]. وفى قوله تعالى جل جلاله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[3].

ففى هذه الآيات الثلاث إسناد جلى للإخراج إلى الله تعالى.

كما أسند هذا الفعل بجلاء إلى الرسول ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[4].

وجاء مسنداً فى صيغة الأمر إلى موسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[5].

وفى إسناد الإخراج احتمالان فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[6].

فيحتمل ليخرجكم الله بالقرآن من الظلمات، ويحتمل ليخرجكم الرسول بدعوته[7].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٧).
(٢) سورة المائدة الآيتان (١٥، ١٦).
(٣) سورة الأحزاب الآية (٤٣).
(٤) سورة إبراهيم الآية (١).
(٥) سورة إبراهيم الآية (٥).
(٦) سورة الحديد الآية (٩).
(٧) ينظر الكشاف جـ٤ ص ٦٢، ولباب التأويل للخازن جـ٤ ص ٢٢٨، ومدارك التنزيل للنسفى على هامشه.

أما آية الطلاق وهى قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[١].

فقوله تعالى: ﴿ **رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات** ﴾ قال ابن عطية: اختلف فى المراد بالأسمين: (الذكر)، و (الرسول)، وأبين الأقوال عندى معنى أن يكون الذكر للقرآن، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى بعث رسولا.

قال الطاهر ابن عاشور –رحمه الله–: إسناد الإخراج إلى النبى ﷺ، لأنه يبلغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان، وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبين للناس ويقرب إليهم معانى الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة، وإذ قد أسند الإخراج إليه فى سياق تعليل إنزال الكتاب المنزل أى بما يشتمل عليه من معانى الهداية.

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دل على أن الهداية هى مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم فى ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله.

وفى كلام الطاهر فائدتان:

١– أن إسناد الإخراج إلى النبي ﷺ مبلغا لما أنزل عليه من الكتاب، وكونه مبينًا له أيضا، ومما يؤكد هذا أن فى جميع الآيات التى ذكر فيها الإخراج مسنداً إلى الرسول ﷺ أو مقترنا بذكر رسالته ذكر فى السياق القريب معه الكتاب، وقد يعبر عنه بأسماء أخرى، فذكر الكتاب فى سورة إبراهيم الآية(١)، وسورة المائدة الآية(١٥)، والآيات فى سورة إبراهيم الآية(٥)، والآيات البينات فى الحديد الآية(٩)، والآيات المبينات بالفتح فى قراءة فى سورة الطلاق الآيتان(١٠، ١١) والمبينات بالخفض فى قراءة أخرى[٢].

(١) سورة الطلاق الآيتان (١٠، ١١).
(٢) قرأ بالفتح عامة القراء والمعنى: بينها الله سبحانه، وقرأ ابن عامر وحفص والكسائى بالخفض. أى يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ينظر تفسير القرطبى جـ١٨ ص ١٧٤.

وأما الآيتان الأخريان المتممتان للسبعة آيات فقد أسند فيهما الإخراج مباشرة إلى الله تبارك وتعالى، ولم يذكر معه الكتاب فى السياق القريب، كما أنه لم يعبر عنه بمثل تلك الأسماء السابقة.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[١]، وقال عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[٢].

وقد يفهم من هذا والله أعلم أن فى هاتين الآيتين نوعًا خاصا من الإخراج وهو مرتبط بالتوفيق الربانى لعبده المؤمن حين يتولاه الله تعالى فيتعهده بفضله ويرعاه بعنايته «وهى هبة لدنية يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسله، هبة تنير تلك القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط ولا تلتوى بها الطريق»[٣].

قال تعالى ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[٤].

٢- أن إسناد الإخراج إلى رسول الله ﷺ يدل على موقع النبوة وأهميتها فى بنية الإسلام كما أن ذكر الكتاب فى هذا السياق يدل على موقع النص -الوحى- ومركزيته فى منهج الإسلام، فلا يمكن أن نتصور -بحال- إخراجا من الظلمات إلى النور بغير الكتاب، ولا بغير النبى ﷺ المبين للكتاب.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٧).
(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٦).
(٣) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٤٩٦.
(٤) سورة الأنعام الآية (١٢١).

المطلب الثانى

دراسة الآيات التى اشتملت على لفظى الظلمات والنور

وردت فى القرآن الكريم ست آيات جاءت فيها كلمتى الظلمات والنور دون كلمة الإخراج منها ثلاث آيات مكية، وثلاث آيات مدنيه. فسبحان من هذا كلامه، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(١).

أما الآيات المكية فهى:

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾(٢).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

الآية الثالثة: قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴾(٤).

وأما الآيات المدنية فهى:

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾(٥).

الآية الثانية: قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٦).

---

(١) سورة هود الآية (١).
(٢) سورة الانعام الآية (١٢١).
(٣) سورة الأنعام الآية (١٢١).
(٤) سورة فاطر الآية (١٩، ٢٠).
(٥) سورة البقرة الآية (١٧).
(٦) سورة الرعد الآية (١٦).

الآية الثالثة: قال تعالى ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1].

هذه هى الآيات التى ورد فيها لفظى الظلمات والنور دون كلمة الإخراج.

وفى هذا المطلب سأتناول بالدراسة والتحليل هذه الآيات كاشفا اللثام عن ما فيها من لطائف وأسرار بلاغية وفنية من خلال ما ذكره المفسرون حول هذه الآيات.

أولا: الآيات المكية:

الآية الأولى:

قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

المعنى العام للآية:

هذه الآية الكريمة هى الآية الأولى فى سورة الأنعام، وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: «نزلت الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح».. وعن أسماء بنت يزيد قالت نزلت سورة الأنعام على النبى ﷺ جملة وأنا آخذةٌ بزمام ناقة النبى ﷺ إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة».. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج»[3].

بدأ الله تعالى هذه الآية بالحمد لنفسه تعليمًا لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال، وإعلاما بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ندَّ له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل.

---

(١) سورة النور الآية (٤٠).
(٢) سورة الأنعام الآية (١).
(٣) ينظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٢٢.

قال صاحب التفسير الواضح: أثنىٰ الله سبحانه وتعالى على نفسه بما عَلَّم به عباده الثناء عليه، فالحمد لله، وكل ثناء ثابت له، إذ هو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، وثابت له الخلق والإيجاد، والإنشاء والإبداع[١]» وقال صاحب صفوة التفاسير: ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذى أوجد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولى الأبصار[٢].

فهو سبحانه خلق السموات وما فيها، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى، وخلق الأرض، كوكب سيار، وفلك دوار، كانتا رتقا ففتقناهما، وهى معلقة فى الفضاء، وتدور حول الشمس، وعليها الجبال الرواسى، وفيها الأنهار والبحار وعليها نسير، وفيها نعيش وهى كروية، ولا يقع الماء من جوانبها، ولا يتدفق عند قطبيها، من الذى خلق هذا وقدره؟ إنه هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد. ﴿**وجعل الظلمات والنور**﴾ أى: وأنشأ الظلمات والأنوار، وخلق الليل والنهار يتعاقبان فى الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منَوّر الأكوان.

قال فى التسهيل: وفى الآية ردٌّ على المجوس فى عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار، وقولهم: إن الخير من النور، والشر من الظلمة، فإن المخلوق لا يكون إلها، ولا فاعلا لشىء من الحوادث[٣].

وقوله تعالى ﴿**ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾ أى: ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم فيساوون

---

(١) التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازى جـ١ ص ٣٣.

(٢) ينظر صفوة التفاسير. جـ٣ ص ٥٧.

(٣) ينظر: التسهيل: جـ٢ ص ٢.

به أصناما نحتوها بأيديهم، وأوهامًا ولَدوها بخيالهم، ففى ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم.

قال ابن عطية: والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى: أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم. فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتُك وأكرمتُك وأحسنت إليك ثم تشتمنى؟ أى: بعد وضوح هذا كله(١).

دراسة وتحليل:

قوله تعالى ﴿ **الحمد لله** ﴾ تفيد استحقاق الله تعالى الحمد وحده دون غيره؛ لأنها تدلّ على الحصر. واللام لتعريف الجنس، فدلَّت على انحصار استحقاق هذا الجنس وهو الحمد لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ **الذى خلق السموات والأرض** ﴾ اسم الموصول فى محل الصفة لاسم الجلالة، أفاد مع صلته التذكير بعظيم صفة الخلق الذى عم السموات والأرض، وما فيهن من الجواهر والأعراض. وذلك أوجز لفظ فى استحضار عظمة قدرة الله تعالى.

قال صاحب التحرير والتنوير: وجمع السموات لأنها عوالم كثيرة، إذ كلّ كوكب منها عالم مستقل عن غيره، ومنها الكواكب السبعة المشهورة المعبرّ عنها فى القرآن بالسموات السبع فيما نرى، وأفرد الأرض لأنها عالم واحد، ولذلك لم يجىء لفظ الأرض فى القرآن جمعًا(٢).

وقوله ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾. أشار فى الكشاف أن (جعل) إذا تعدى إلى مفعول واحد فهو بمعنى أحدث وأنشأ فيقارب مرادفة معنى (خلق)(٣).

---

(١) ينظر: البحر المحيط جـ٦ ص ٦٨.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٢٦.
(٣) ينظر: الكشاف جـ٢ ص ٢.

وقال صاحب التحرير والتنوير: والفرق بينه وبين (خلق). أن فى الخلق ملاحظة معنى التقدير، وفى الجعل ملاحظة معنى الانتساب، يعنى كون المجعول مخلوقا لأجل غيره أو منتسبا إلى غيره، فيعْرف المنتسب إليه بمعونة المقام. فالظلمات والنور لما كانا عرضين كان خلقهما تكوينا لتُكَيّف موجودات السموات والأرض بهما، ويعرف ذلك بذكر (الظلمات والنور) عقب ذكر السموات والأرض. وباختيار لفظ الخلق للسموات والأرض، ولفظ الجعل للظلمات والنور... وخص بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين، وهما: الظلمات والنور.. لاستواء جميع الناس فى إدراكهما والشعور بهما، وبذكر هذه الأمور الأربعة حصلت الإشارة إلى جنس المخلوقات من جواهر وأعراض.

فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات، وإن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما، وهو ما يسمى فى عرف الأدباء برشاقة الكلمة ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها[١].

والسموات والأرض أضخم مجالى الوجود، والظلمات والنور أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض وفق تدبير مقصود، فهى اللمسة العريضة التى تشمل الأجرام الضخمة فى الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها فى الأفلاك، لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون، بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه[٢].

وفى أختصاص هذه المخلوقات الأربعة السموات والأرض والظلمات والنور بالذكر دون سائر المخلوقات تعريض بإبطال عقائد كفار العرب؛ فإنهم بين مشركين

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٢٦، ١٢٧.

(٢) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٢ ص ١٠٣٠ دار الشروق.

وصابئة ومجوسى ونصارى، وكلهم قد أثبتوا آلهة غير الله، فالمشركون أثبتوا آلة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى، أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم، فأخبرهم الله تعالى أنه خالق السموات والأرض، أى بما فيهن، وخالق الظلمات والنور.

ثم إنّ فى إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض إيماء وتعريض بحالَىْ المخاطبين بالآية من كفر فريق، وإيمان فريق، فإن الكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس فى جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه استبانة الهدى والحق. وقدم ذكر الظلمات على النور مراعاة للترتيب في الوجود لأن الظلمة سابقة النور، فإن النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامة[1].

وفى علة جمع الظلمات وإفراد النور يقول صاحب الكشاف: «فإن قلت: لِمَ أفرد النور؟ قلت: للقصد إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿ **وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا** ﴾[2] أو لأن الظلمات كثيرة لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة بخلاف النور، فإنه من جنس واحد وهو النار[3].

إلا أن هذا الكلام لم يرض صاحب التحرير والتنوير فقال: «وإنما جمع (الظلمات) وأفرد «النور» اتباعا للاستعمال، لأنّ لفظ (الظلمات) بالجمع أخف، ولفظ (النور) بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) فى القرآن إلا جمعا، ولم يرد لفظ (النور) إلا مفردا، وهما معاد الآن على الجنس، والتعريف الجنسى يستوى فيه المفرد والجمع فلم يبق للإختلاف سبب لاتباع الاستعمال، خلافا لما فى الكشاف[4].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٢٧ بتصرف.
(٢) سورة الحاقة الآية (١٧).
(٣) ينظر: الكشاف جـ٢ ص٢.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٢٧.

ويمكن التوفيق بين ما ذهب إليه كل منهما فى أن لفظ الظلمات جاء جمعا لخفته فى النطق ولأن مصادر الظلمة متعددة، وجاء لفظ النور مفردا لخفته وسهولته ولأن مصدر النور واحد ولا مشاحة بين التعليلين فإن النكات البلاغية لا تتدافع. وسأزيد هذه المسألة -إن شاء الله- بيانا فى حينها.

وقوله تعالى: ﴿**ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾ العطف بثم أفاد استبعاد أن يعدلوا به سبحانه بعد وضوح آيات قدرته.

قال صاحب التحرير والتنوير: (والخبر مستعمل فى التعجب على وجه الكناية بقرينة موقع ثم ودلالة المضارع على التجدّد، .... ومعنى التعجيب عام فى أحوال الذين ادّعوا الإلهية لغير الله تعالى سواء فيهم من كان أهلا للاستدلال والنظر فى خلق السموات والأرض، ومن لم يكن أهلا لذلك؛ لأن محل التعجيب أنه يخلقهم ويخلق معبوداتهم فلا يهتدون إليه، بل ويختلقون إلهيَّة غيره. ومعلوم أن التعجب من شأنهم متفاوت على حسب تفاوت كفرهم وضلالهم)[١].

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٢].

المعنى العام للآية:

قال أبو حيان: (لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مَثَّل تعالى؛ بأن شبه المؤمن بالحيّ الذى له نور يتصرف به كيفما سلك، والكافر بالمتخبط فى الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين)[٣].

والمعنى: أو من كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن، وجعل له مع تلك الهداية النور العظيم

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) سورة الأنعام الآية (١٢٢).

(٣) ينظر: البحر المحيط جـ٤ ص ٢١٤.

الوضاء الذى يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل، كمن هو يتخبط فى ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المنقذ ولا المخلص.

قال البيضاوى: وهو مَثَلٌ لمن بقى فى الضلالة لا يفارقها بحال(١).

وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»(٢).

يقول الشيخ سيد قطب فى معنى قوله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾؟ كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين، قبل أن ينفخ الإيمان فى أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف.. كانت قلوبهم مواتا، وكانت أرواحهم ظلاما.. ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشى به فى الناس تهدى الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر، وتعلن فى الأرض ميلاد الإنسان الجديد، الإنسان المتحرر المستنير، الذى خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد؛ أفمن نفخ الله فى روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور كمن حاله أنه فى الظلمات، لا مخرج له منها؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان فما الذى يمسك بمن فى الظلمات والنور حوله يفيض؟(٣).

ومعنى قوله تعالى ﴿**كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾ أى: وكما بقى هذا فى الظلمات يتخبط فيها كذلك حسنا للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصى. قال القرطبى: زين لهم الشيطان عبادة الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين(٤).

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوى ص ١٨١.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٧٢.
(٣) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٢٠.
(٤) ينظر: تفسير القرطبى طبعة دار الشعب ص ٢٥١٥.

وقال أبو السعود: (كذلك) أى مثل ذلك التزيين البليغ (زين) أى من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند إيحاء الشياطين، أو من جهة الشياطين بطريقة الزخرفة والتسويل (للكافرين) التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالمزخرفات التى يوحونها إليهم (ما كانوا يعملون) ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من القبائح، فإنها لو لم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها، ولما جادلوا بها الحق[١].

ويقول الشيخ سيد قطب: إن هناك تزيينا للكفر والظلمة والموت، والذى ينشىء هذا التزيين ابتداء هو مشيئة الله التى أودعت فطرة هذا الكائن الإنسانى الإستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة، تبتليه بالاختبار للظلمة أو النور، فإذا اختار الظلمة زينت له، ولج فى الضلال حتى لا يخرج من الظلمة ولا يعود، ثم إن هناك شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويزينون للكافرين ما يعملون، والقلب الذى ينقطع عن الحياة والإيمان والنور، يسمع فى الظلمة للوسوسة، ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام العميق[٢].

دراسة وتحليل:

الواو فى قوله تعالى: ﴿ **أو من كان ميتا** ﴾ عاطفة لجملة الاستفهام على جملة: ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ لتضمن قوله: ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾ أن المجادلة. المذكورة من قَبْلُ، مجادلة فى الدين: بتحسين أحوال أهل الشرك وتقبيح أحكام الإسلام التى منها: تحريم الميتة، وتحريم ما ذكر اسم غير الله عليه، فلمَّا حذر الله المسلمين من دسائس أولياء الشياطين ومجادلتهم بقوله: ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ أعقب ذلك بتفظيع حال المشركين، ووصف حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشرك، فجاء بتمثيلين للحالتين، ونفى مساواة إحداهما للأخرى: تنبيها على سوء أحوال أهل الشرك وحسن حال أهل الإسلام.

(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ١٣٣.

(٢) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٢ ص ١٢٠١.

والهمزة للاستفهام المستعمل في إنكار تماثل الحالتين: فالحالة الأولى حالة الذين أسلموا بعد أن كانوا مشركين، وهي المشبهة بحال من كان ميّتا مودعا في ظلمات فصار حيا في نور واضح، وسار في الطريق الموصلة للمطلوب بين الناس، والحالة الثانية حالة المشرك وهي المشبهة بحالة من هو في الظلمات ليس بخارج منها، لأنه في ظلمات. وفي الكلام إيجاز حذف.

والكلام جارٍ على طريقة تمثيل حال من أسلم وتخلّص من الشرك بحال من كان ميتا فأحيي وتمثيل حال من هو باق في الشرك بحال ميت باق في قبره.

فتضمنت جملة: ﴿**أو من كان ميتا**﴾ إلى آخرها تمثيل الحالة الأولى، وجملة: ﴿**كمن مثله في الظلمات**﴾ إلخ تمثيل الحالة الثانية، فهما حالتان مشبهتان، وحالتان مشبه بهما، وحصل بذكر كاف التشبيه وهمزة الإستفهام الإنكاري أن معنى الكلام نفي المشابهة بين من أسلم وبين من بقي في الشرك، كما حصل من مجموع الجملتين: أن في نظم الكلام تشبيهين مركبين(١).

وقد تبين بهذا التمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادهم.

وقوله تعالى: ﴿**كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾ استئناف بياني، لأن التمثيل المذكور قبلها يثير في نفس السامع سُؤالا، أن يقول: كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضلالات، وكيف لم يشعروا بالبون بين حالهم وحال الذين أسلموا؛ فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم في اعتقادهم وأعمالهم، فكيف لما دعاهم الإسلام إلى الحق ونصب لهم الأدلة والبراهين بقوا في ضلالهم لم يقلعوا عنه وهم أهل عقول وفطنة فكان حقيقا بأن يبين له السببُ في دوامهم على الضلال، وهو أن ما عملوه كان تزيّنه لهم الشياطين، هذا التزيين العجيب، الذي لو أراد أحد تقريبه لم يجد ضلالا مزيَّنا أوضح منه وأعجب فلا يشبه ضلالهم إلا بنفسه على حد قولهم: «والسفاهة كاسمها»(٢).

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٥ ص ٤٤، ٤٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٥ ص ٤٦.

وحُذِفَ فاعل التزيين فبنى الفعل للمجهول: لأن المقصود وقوع التزيين لا معرفة من أوقعه.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾(١).

المعنى العام للآيات:

يرشدنا تعالى إلى أنه كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كبير، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات كقوله تعالى ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(٢). وقال عز وجل: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾(٣).

فالمؤمن بصير سميع فى نور يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون. والكافر أعمى وأصم فى ظلمات يمشى لا خروج له منها، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم(٤).

قال أبو حيان: وترتيب هذه الأشياء فى بيان عدم الاستواء جاء فى غاية الفصاحة، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلا للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما وهو الظلُّ والحرور،

---

(١) سورة فاطر الآيات (١٩-٢٢).
(٢) سورة الأنعام الآية (١٢٢).
(٣) سورة هود: الآية (٢٤).
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٥٢.

فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحي والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت[١].

دراسة وتحليل:

المتأمل في هذه الآيات يجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر أربعة أمثال للمؤمنين والكافرين، وللإيمان والكفر، فقد شبه الكافر بالأعمى، والكفر بالظلمات، والحرور والكافر بالميت، وشبه المؤمن بالبصير، وشبه الإيمان بالنور والظل، وشبه المؤمن بالحي تشبيه المعقول بالمحسوس فهذه أمثال كاشفة عن اختلاف حالة الفريقين، وروعي في هذه الأشياء توزيعها على صفة الكافر والمؤمن، وعلى حالة الكفر والإيمان، وعلى أثر الإيمان والكفر.

ثم إنه قدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء؛ لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر، ثم الانتقالُ إلى حسن حال ضده. فالكافر يشبه الأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة، كاختلاط أمر الأعمى بين إدراك وعدمه. والمعنى: أن الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإن عقله تمحض لإدراك أحوال الحياة الدنيا، وكان كالعدم في أحوال الآخرة مصداقا لهذا قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[٢]، فحاله المقسم بين انتفاع بالعقل وعدمه يشبه حال الأعمى في إدراكه أشياء وعدم إدراكه.

ثم شبه الكفر بالظلمات في أنه يجعل الذي أحاط هو به غير متبين للأشياء، فإن من خصائص الظلمة إخفاء الأشياء، والكافر خفيت عنه الحقائق الاعتقادية، وكلما بينها له القرآن لم ينتقل إلى أجلى، كما لو وصفْت الطريق للسائر في الظلام.

والإيمان بالنور في أنه يجعل الذي أحاط هو به على هدى يتبين الأشياء

---

(١) ينظر: البحر المحيط جـ٧ ص ٣٠٧.

(٢) سورة الروم الآية (٧).

ويراها لأن من خصائص النور أنه تنكشف به الأشياء، والمؤمن يرى حقائق الأشياء ويعرف ما ينفعه فيتمسك به وما يضره فيجتنبه.

وضرب الظل مثلا لأثر الإيمان، وضده وهو الحرور مثلا لأثر الكفر؛ . . والحرور: حر الشمس، ويطلق أيضا على الريح الحارة وهى السموم، أو الحرور: الريح الحارة التى تهب بليل والسموم تهب بالنهار.

وفى تقديم ما هو من حال المؤمنين فى قوله تعالى ﴿**ولا الظل ولا الحرور، وما يستوى الأحياء ولا الأموات**﴾ على حال الكافرين على عكس المثلين الأولين فى قوله تعالى ﴿**وما يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور**﴾ يرى صاحب التحرير والتنوير أن علة ذلك هو رعاية الفاصلة بكلمة «الحرور» وفواصل القرآن من متممات فصاحته، فلها حظ من الإعجاز[1] ويرى صاحب البحر المحيط أنه قدَّم الأشرف فى المثلين الآخيرين وهما «الظل، والحى» وقدم الأوضح فى المثلين الأولين وهما «الأعمى، والظلمات» ليظهر الفرق جليا، وليس لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست فى مجرد اللفظ، بل فى المعنى أيضا[2]، ويمكن الجمع بين العلتين فإن الأغراض البلاغية لا تتدافع.

وفى قوله تعالى ﴿**وما يستوى الأحياء ولا الأموات**﴾ أظهر الفعل الذى قدِّر فى الجملتين اللتين قبلها وهو فعل «يستوى»، لأنه التمثيل هنا عاد إلى تشبيه حال المسلمين والكافرين؛ إذ شبه حال المسلم بحال الأحياء، وحال الكافرين بحال الأموات، فهذا ارتقاء فى تشبيه الحالين من تشبيه المؤمن بالبصير، والكافر بالأعمى إلى تشبيه المؤمن بالحى، والكافر بالميت، . . . . فلما كانت الحياة هى مبعث المدارك والمساعى كلها، وكان الموت قاطعا للمدارك والمساعى، شبه الإيمان بالحياة فى انبعاث خير الدنيا والآخرة منه، وفى تلقى ذلك وفهمه، وشبه الكفر بالموت فى الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلها، وفى عدم تلقى ما يلقى إلى صاحبه، فصار المؤمن شبيها بالحى مشابهة كاملة لَمَّا خرج من الكفر إلى الإيمان، فكأنه بالإيمان نفخت فيه الحياة بعد الموت كما أشار إليه قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿**أو من كان ميتا فأحييناه**﴾ وكان الكافر شبيها بالميت ما دام على كفره[3].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٢٩٣ بتصرف.

(٢) ينظر: البحر المحيط جـ٧ ص ٣٠٩ بتصرف.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٢٩٤.

ثانيا: الآيات الثنية:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾(١).

المعنى العام للآية:

هذه الآية الكريمة تصور لنا حالة المنافقين فى استبدالهم الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى وخسارتهم فى اختيارهم ذلك. أى الكفر بعد الإيمان – فقال سبحانه ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً** ﴾ أى مثالهم فى نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفيء بها ويستضيء، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته فى ظلام دامس، وخوف شديد ﴿ **فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم** ﴾ أى: فلما أنارتْ المكان الذى حوله فأبصر وأمن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار، وعُدم النور ﴿ **وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾. أى: وأبقاهم فى ظلمات كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون.

قال ابن كثير: ضرب الله للمنافقين هذا المثل، فشبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمي، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله.. فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار فى ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى، واستحبابهم الغيَّ على الرشد، وفى هذا

(١) سورة البقرة الآية (١٧).

المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا** ﴾ تشبيه تمثيلى. شبه حالة المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفى ضرب المثل شأن لا يخفى، ونور لا يُطْفَى، يرفع الأستار عن وجوه الحقائق، ويميط اللثام عن مُحَيَّا الدقائق، ويبرز المتخيل فى معرض اليقين، فهو يقرب البعيد، ويوضح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد ويجعل الغائب كأنه حاضر، والمعقول محسوس.

وربما تكون المعانى التى يراد تفهيمها معقولة صرفة، فالوهم ينازع العقل فى إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما فى العقل. فبضرب الأمثال تبرز فى معرض المحسوس، فيساعد الوهم العقل فى إدراكها، وهناك تنجلى غياهب الأوهام، ويرتفع شعب الخصام. قال تعالى ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٢].

قال الفخر الرازى: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نورًا، ثم بنفاقهم ثانيا ابطلوا ذلك النور، ووقعوا فى حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لخسران نفسه أبد الآبدين[٣].

وفى التعبير بالنور دون الضياء مع أن مقتضى السياق يدعو إلى التعبير بالضياء ليتناسب مع أول الآية ﴿ **استوقد نارا** ﴾ لطائف وأسرار.

قال ابن القيم: تأمل قوله تعالى ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل: « ذهب الله

---

(١) ينظر: مختصر ابن كثير جـ١ ص ٢٦.
(٢) سورة الحشر الآية (٢١).
(٣) ينظر: الفخر الرازى جـ٢ ص ٧٣.

بنارهم» مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿ **استوقد نارًا** ﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق وهو «النارية»!! وتأمل كيف قال «بنورهم» ولم يقل بضوئهم، لأن الضوء زيادةً فى النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، وتأمل كيف قال «ذهب الله بنورهم» فوحد النور ثم قال «وتركهم فى ظلمات» فجمعها، فإن الحقَّ واحد هو صراط الله المستقيم، الذى لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه «الحق» وجمع «الباطل» فى آيات عديدة مثل قوله تعالى «يخرجهم من الظلمات إلى النور» وقوله «وجعل الظلمات والنور» وقوله ﴿ **وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ فجمع سبل الباطل ووحد سبل الحق[١].

وعبر «بالذى» دون الذين فى قوله تعالى ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** ﴾ لأنه قصد جنس المستوقدين أو أريد الجمع أو الفوج الذى استوقد نارًا، على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم وحالتهم بقصة وحالة المستوقد، ونحوه قوله تعالى ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾[٢]، وقوله ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت** ﴾.

و «استوقد» بمعنى أوقد، فالسين والتاء فيه للتأكيد، ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها، و «النار» جوهر لطيف مضىء حار محرق، «والنور» ضوءها وضوء كل نير، وهو نقيض الظلمة، واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأن فيها حركة واضطرابا، والنور مشتق منها[٣].

و «الإضاءة» فرط الإنارة، قال تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ**

---

(١) نقلا عن محاسن التأويل للقاسمى.
(٢) سورة الجمعة الآية (٥).
(٣) ينظر اللسان مادة (ن و ر).

نُوراً ﴾[1] وأضاء يجيء متعديا وهو الأصل، لأن مجرده ضَاء فتكون حينئذ همزته للتعدية. ويجيء قاصراً بمعنى ضاء فهمزته للصيرورة، أى: صار ذا ضوء فيساوى ضاء.

قال صاحب التحرير والتنوير: والآية تحتملهما. أى: فلما أضاءت النار الجهات التى حوله وهو معنى ارتفاع شعاعها وسطوع لهبها، فيكون ما حوله موصولا مفعولا لأضاءت، وهو المتبادر، وتحتمل أن تكون من أضَاء القاصر أى: أضاءت النار أى: اشتعلت وكثر ضوءها فى نفسها، ويكون ما حوله على هذا ظرفا للنار. أى: حصل ضوء النار حولها غير بعيد عنها، وحوله ظرف للمكان القريب، ولا يلزم أن يراد به الإحاطة، فحوله هنا بمعنى لديه[2].

ومعنى: ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾: أطفأ نارهم، واختيار النور على النار، لأنه المقصود وهو أعظم منافعها، والمناسب للمقام سياقا ولحاقا.

واختير التعبير «بذهب» المعدى بالباء دون «أذهب المعدى بالهمزة لما فيه من المبالغة فى ذهاب نورهم وإزالته ومحوه».

قال: الألوسى: وعدى بالباء، دون الهمزة، لما فى المثل السائر أن «ذهب بالشيء» يفهم منه أنه استصحبه وأمسكه عن الرجوع إلى الحالة الأولى، ولا كذلك «أذهبه» فالباء والهمزة، وإن اشتركا فى معنى التعدية، فلا يبعد أن ينظر صاحب المعانى إلى معنى الهمزة والباء الأصليين، أعنى الإزالة والمصاحبة والإلصاق.

ففى الآية لطف لا ينكر، كيف والفاعل هو الله تعالى القوى العزيز، الذى لا رادَّ لما أخذه، ولا مرسل لما أمسكه.

وذكر أبو العباس أن «ذهب بزيد» يقتضى ذهاب المتكلم مع زيد دون «أذهبته» ولعله يقول: إن ما فى الآية مجاز عن شدة الأخذ، بحيث لا يرد[3].

---

(١) سورة يونس الآية (٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣٠٨.

(٣) ينظر: تفسير روح المعانى جـ١ ص ٣٩٧.

وأسند الفعل «ذهب» إلى الله تعالى لأنه حصل بلا سبب من ريح أو مطر أو إطفاء مطفىء، والعرب والناس يسندون الأمر الذى لم يتضح سببه لاسم الله تعالى(١).

وقوله: ﴿ **وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾ عطف على قوله تعالى ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ وهو أو فى بتأدية المراد، فيستفاد منه التقرير لانتفاء النور بالكلية، تبعا لما فيه من ذكر الظلمة، وجمعها، وتنكيرها.

قال صاحب التحرير: هذه الجملة تتضمن تقرير المضمون «ذهب الله بنورهم»، لأن من ذهب نوره بقى فى ظلمة لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التى صاروا إليها، فإن للدلالة الصريحة من الإرتسام فى ذهن السامع ما ليس للدلالة الضمنية؛ فإن قوله ذهب الله بنورهم يفيد أنهم لما استوقدوا نارا فانطفأت انعدمت الفائدة، وخابت المساعى، ولكن قد يذهل السامع عما صاروا إليه عند هاته الحالة، فيكون قوله بعد ذلك ﴿ **وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾ تذكيرا بذلك، وتنبيها إليه(٢).

وجمع ظلمات لقصد بيان شدة الظلمة. ويتعين فى هذه الآية أن جمع ظلمات أشير به إلى أحوال من أحوال المنافقين كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة وتلك هى: حالة الكفر، وحالة الكذب، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق، وهذا التمثيل تمثيل لحال المنافقين فى ترددهم بين مظاهر الإيمان، وبواطن الكفر؛ فوجه الشبه هو: ظهور أمر نافع ثم انعدامُه قبل الانتفاع به، فإنَّ فى إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمان وبشاشته، لأن للإسلام نورا وبركة ثم لا يلبثون أن يرجعوا عند خلوهم بشياطينهم فيزول عنهم ذلك، ويرجعوا فى ظلمة الكفر أشد مما كانوا عليه لأنهم كانوا فى كفر فصاروا فى كفر وكذب وما يتفرع عن النفاق من المذام، فإن الذى يستوقد النار فى

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣٠٩.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣١٠.

الظلام يتطلب رؤية الأشياء، فإذا انطفأت النار صار أشد حيرة منه فى أول الأمر؛ لأن ضوء النار قد عوَّد بصره فيظهر أثر الظلمة فى المرة الثانية أقوى ويرسخ الكفر فيهم، وبهذا تظهر نكتة البيان بجملة «لا يبصرون» لتصوير حال من انطفأ نوره بعد أن استضاء به.

ومفعول لا يبصرون محذوف لقصد عموم نفى المبصَرات، فنزّل الفعل منزلة اللازم ولا يقدَّر له مفعول كأنه قيل: لا إحساس بعيد لهم.

وقد أجمل وجه الشبه فى تشبيه حال المنافقين اعتمادا على فطنة السامع؛ لأنه يمخضه عن مجموع ما تقدم من شرح حالهم ابتداء من قوله ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله** ﴾ إلخ، ومما يتضمنه المثلان من الإشارة إلى وجوه المشابهة بين أجزاء أحوالهم، وأجزاء الحالة المشبه بها[١].

ومن بدائع هذا التمثيل أنه مع ما فيه من تركيب الهيأة المشبه بها ومقابلتها للهيأة المركبة من حالهم هو قابل لتحليله بتشبيهات مفردة لكل جزء من هيأة أحوالهم بجزء مفرد من الهيئة المشبه بها، فشبه استماعهم القرآن باستيقاد النار، ويتضمن تشبيه القرآن فى إرشاد الناس إلى الخير والحق بالنار فى إضاءة المسالك للسالكين، وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب نور النار، وشبه كفرهم بالظلمات، ويشبهون بقوم انقطع إبصارهم[٢].

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾[٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣١١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣١٣.

(٣) سورة الرعد الآية (١٦).

المعنى العام:

لما نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوعة على إنفراده بالألوهية والتى من قوله ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** ﴾. وقوله ﴿ **وهو الذى مد الأرض** ﴾ وقوله ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾، وقوله ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ الآيات الواردة فى أول هذه السورة، وبما فى آيات أخرى فى نفس السورة من دلالة رمزية دقيقة على انفراده أيضا بالألوهية منها قوله تعالى ﴿ **له دعوة الحق** ﴾ وقوله ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض** ﴾ لا شك أن المقام قد تهيأ لتقرير المشركين تقريرا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعا لا يسعهم إلا تجرع مرارته. لذلك استؤنف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويها بوضوح الحجة(١).

فقال تعالى لنبيه: ﴿ **قل من رب السموات والأرض** ﴾ أي قل يا محمد للمشركين من خلق السموات والأرض، ثم أمره أن يقول لهم هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو وفى إعادة الأمر بالقول فى قوله تعالى ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء** ﴾ دليل على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء** ﴾ معنى، دليله قوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾، أى فإذا اعترفتم بأن الله هو خالق السموات والأرض فَلِمَ تعبدون غيره؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح.

ثم ضرب لهم مثلا فقال: ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور** ﴾ والجواب لا. أى كما أنه لا يستوى الأعمى والبصير، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق لا يستوى بالمشرك الذى لا يبصر الحق، وكما لا تستوى الظلمات والنور، لا يستوى الشرك والإيمان.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٧ ص ١١٢.

وقوله تعالى ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم** ﴾ من تمام الاحتجاج. أى. أهناك غير الله خلق مثل خَلْقه فتشابه الخق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم؟ ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولانده ولا عدل له، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿ **تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا** ﴾. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ فانكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له».. وقال «إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً. لقد أحصاهم وعدهم عداً. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً». فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان. بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع[1].

ثم أمر الله نبيه أن يقرر لهم أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء فقال تعالى ﴿ **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ أى: قل لهم يا محمد: الله خالق كل شيء، فيلزم لذلك أن يعبده كل شيء، وهو الواحد قبل كل شيء، الغالب لكل شيء ولا يغلب.

قال القرطبى فى تفسيره نقلا عن القشيرى: أبو النصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع، أي سلهم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإنَّ عَجْزَ الجماد وَعجْز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم، وإذا تقرر هذا وبان أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له؟... ولو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين[2].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٥٠٧، ٥٠٨ بتصرف.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص ٣٠٤.

دراسة وتحليل:

الإستفهام فى قوله تعالى: ﴿ **قل من رب السموات والأرض** ﴾ غير حقيقى، افاد الإقرار، لأن جوابه جاء من قبل المستفهم، وهذا كثير فى القرآن الكريم، وهو من بديع أساليبه كقوله تعالى: ﴿ **قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ** ﴾(٢).

وفى أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالجواب من قبله إشعار بأنه متعين بالجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء، أو أمر بحكاية اعترافهم إيذانا بأنه أمر لا بدلهم من ذلك... أو أمرَ بتلقينهم ذلك إن تلعثموا فى الجواب حذراً من الإلزام؛ فإنهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرون على إنكاره(٣).

قال الزمخشرى: قوله ﴿ **قل الله** ﴾ حكاية لاعترافهم، وتأكيد له عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله كقوله ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** ﴾(٤). وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟. فإذا قال: هذا قولى: قال هذا قولك، فيحكى إقراره تقريرا له عليه، واستيثاقا منه، ثم بقوله له فيلزمك على هذا القول كيت وكيت، ويجوز أن يكون تلقينا؛ أى: إن كفوا «أى امتنعوا» عن الجواب فلقنهم، فإنهم يتلقونه، ولا يقدرون أن ينكروه(٥).

وقد أفاد إعادة فعل الأمر بالقول فى قوله تعالى: ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا** ﴾ الذى هو تفريع على الإقرار بأن الله هو رب السموات والأرض قصد الإهتمام بذلك التفريع لما فيه من الحجة الواضحة عليهم.

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢).

(٢) سورة النبأ الآية (١، ٢).

(٣) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٣ ص ١٠٣ بتصرف.

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٨٦، ٨٧).

(٥) ينظر: تفسير الزمخشرى جـ٢ ص ٢٨٤.

فالاستفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناء على الإقرار المسلم. وفيه استدلال آخر على عدم أهلية أصنامهم للألوهية، فإن اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

وجملة «لا يملكون» صفة لأولياء والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر فى تلك الصفة، فإنهم إن تدبروا علموها وعلموا أن من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد[1]. والمعنى: أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك وهؤلاء الأولياء لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها، أو يدفعوا عنها ضراً، فكيف يستطيعون لغيرهم، وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب، فما أبين ضلالتكم.

وفى عطف الضر على النفع استقصاء فى عجزهم؛ لأن شأن الضر أنه أقرب للاستطاعة وأسهل.

وفى قوله تعالى: ﴿**قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور**﴾ أعاد الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام؛ لأن ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة، وهذا إظهار لمزية المؤمنين على أهل الشرك، ذلك أن قوله: ﴿**قل من رب السموات والأرض قل الله**﴾ تضمَّن أن الرسول ﷺ دعا إلى إفراد الله بالربوبية، وأن المخاطبين أثبتوا الربوبية للأصنام، فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير، وحال الظلمات والنور. ونفى التسويه بين الحالين يتضمن تشبيها بالحالين، وهذا من صيغ التشبيه البليغ. و «أم» للإضتراب الإنتقالى فى التشبيه... وأظهر حرف (هل) بعد (أم) لأن فيه تحقيق الاستفهام.

واختير التشبيه فى المتقابلات العمى والبصر، والظلمة والنور، لتمام المناسبة؛ لأن حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة فى أنعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحال البصر فى العلم، وكحال النور فى الإفاضة والإرشاد[2].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٧ ص ١١٣. (٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٧ ص ١١٤، ١١٥.

وعليه فالأعمى مثل للمشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها، والبصير مثل للمؤمن الموحد بذلك، والظلمات عبارة عن الشرك والكفر والضلال، والنور عبارة عن التوحيد والإيمان.

وقوله تعالى ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم** ﴾ يقول الزمخشرى: ﴿ **أم جعلوا** ﴾ بل أجعلوا، ومعنى الهمزة الإنكار و ﴿ **خلقوا** ﴾ صفة لشركاء، يعنى أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿ **فتشابه** ﴾ عليهم خلق الله وخلقهم حتى يقولوا: قَدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء، ونعبدهم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق(١).

يفهم من هذا أن الكلام بعد (أم) استفهام حذفت أداته لدلالة أم عليه، وهو مستعمل فى التهكم والتغليط والإنكار عليهم، لأن قوله تعالى ﴿ **خلقوا كخلقه** ﴾ فى سياق الإنكار تهكم بهم؛ لأن غير الله لا يخلق خلقا البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله تقدس عن التشبيه، ولا بطريق الانحطاط والقصور؛ فقد كان يكفى فى الإنكار عليهم أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقا، ولكن جاء قوله تعالى ﴿ **كخلقه** ﴾ تهكم يزيد الإنكار تأكيداً.

وفى الآية الكريمة التفات من الخطاب فى قوله ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء** ﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿ **أم جعلوا لله شركاء** ﴾ أفاد الإعراض عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم.

وفى قوله تعالى: ﴿ **قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ إلقام لأفواه المشركين الأولين، ثم لأفواه التابعة لهم فى هذه الضلالة كالقدرية. فإن الله تعالى بتَّ هذه البتة أنَّ كل شىء يصدق عليه أنه مخلوق جوهراً كان أو عرضا،

---

(١) ينظر: الكشاف جـ٢ ص ٢٨٤.

فعلا لعبيده أو غيره فالله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الإشتراك إلا عند كل أثيم أفاك[١].

ولتعيين موضوع الوحدة، ومتعلق القهر حذف متعلقهما، والتقدير: المتوحد بالألوهية المنفرد بالربوبية والخلق. القهار لكل ما سواه، فكيف يتوهم أن يكون له شريك. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾[٢].

المعنى العام للآية:

هذه الآية مثل ثان لأعمال الكفار والمثل الأول فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ...** ﴾[٣]. وعليه فإن تقدير الكلام أن أعمالهم إما كسراب بقيعة وذلك فى الآخرة، وإما كظلمات فى بحر وذلك فى الدنيا.

فقوله تعالى: ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجى** ﴾. أى مثل أعمالهم كظلمات متكاثفة فى بحر عميق لا يدرك قعره، يغطى ذلك البحر ويعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض من فوق ذلك الموج الثانى سحاب كثيف ﴿ **ظلمات بعضها فوق بعض** ﴾ أى: هى ظلمات متكاثفة متراكمه بعضها فوق بعض.

قال قتادة الكافر يتقلب فى خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمه، ومدخله ظلمه، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **إذا أخرج يده لم يكد يراها** ﴾ من تتمة التمثيل. أى: إذا

---

(١) ينظر: كتاب الإنتصاف فيما تضمنه من الإعتزال لابن المنير على الكشاف جـ٢ ص ٢٨٤.
(٢) سورة النور الآية (٤٠).
(٣) سورة النور الآية (٣٩).
(٤) ينظر: تفسير الطبرى جـ١٨ ص ١١٦.

أخرج ذلك الإنسان الواقع فى هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها؛ فإن ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة، فكذلك شأن الكافر يتخبط فى ظلمات الكفر والضلال، ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾. أى ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر. قال ابن كثير: أى من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر كقوله ﴿ **من يضلل الله فلا هادى له** ﴾ وهذا فى مقابلة ما قال فى مثل المؤمنين ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾ تمثيل حال الذين كفروا فى أعمالهم التى يعملونها، وهم غير مؤمنين بحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية فإذا هو فى ظلمات لا يهتدى معها طريقا، فوجه الشبه هو ما حَفَّ بأعمالهم من ضلال الكفر الحائل دون حصول مبتغاهم.

وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة حيث إن الأعمال من الأشياء التى تدرج بالعقل، والظلمات والموج والسحاب من الأشياء التى تدرك بحاسة البصر.

والظلمات: الظلمة الشديدة، والجمع هنا مستعمل فى لازم الكثرة وهو الشدة. فالجمع كناية لأن شدة الظلمة يحصل من تظاهر عدة ظلمات. ألا ترى أن ظلمة بين العشاءين أشد من ظلمة عقب الغروب، وظلمة العشاء أشد مما قبلها[٢].

ومعنى كون الظلمات «فى بحر» أنها انطبع سوادها على ماء بحر، فصار كأنها فى البحر.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٩٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ص ٢٥٥.

واللجّيُّ: منسوب إلى اللجة، واللج: هو معظم البحر، أى محى بحر عميق، فالنسب مستعمل فى التمكن من الوصف.

والموج: اسم جمع موجة. والموجة: مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه بسبب اضطراب فى سطحه بهبوب ريح من جانبه يدفعه إلى الشاطىء. وأصله مصدر: ماج البحر: أى اضطرب وسمى به ما ينشأ عنه.

ومعنى ﴿**من فوقه موج**﴾ أن الموج لا يتكسر حتى يلحقه موج آخر من فوقه، وقد أفاد ذلك بقاء ظلمته وشدتها.

وقوله تعالى ﴿**من فوقه سحاب**﴾ أفاد زيادة الظلمة إظلاما، لأن السحاب بطبيعته يحجب ضوء الشمس والقمر.

وقوله تعالى: ﴿**ظلمات بعضها فوق بعض**﴾ استئناف، والتقدير: هى ظلمات، والمراد بالظلمات التى هنا غير المراد بقوله: ﴿**أو كظلمات**﴾ لأن الجمع هنا جمع أنواع، وهنالك جمع أفراد من نوع واحد.

وقوله: ﴿**لم يكد يراها**﴾ مبالغة فى لم يرها، أى: لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها[١].

ذكر الفخر الرازى: أن أبى بن كعب قال: الكافر يتقلب فى خمس من الظلم: كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره إلى النار».

ثم قال: أى الفخر الرازى: وفى كيفية هذا التشبيه يعنى تشبيه أعمال الكافر بالظلمات – وجوه أخر:

أحدها: أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب، وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل.

ثانيها: شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث.

---

(١) ينظر: الكشاف جـ٣ ص ٧٨.

ثالثها: أن الكافر لا يدرى، ولا يدرى أنه لا يدرى، ويعتقد أنه يدرى.

فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات.

رابعها: أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره، قد تراكمت عليه الضلالات حتى إن أظهر الدلائل إذا ذكرت عنده لا يفهمها.

خامسها: قلب مظلم فى صدر مظلم[١].

وقوله تعالى: ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ تذييل للتمثيل. أى هم باءوا بالخيبة فيما ابتغوا ممّا علموا، وقد حقهم الضلال الشديد فيما عملوا حتى عدموا فائدته، لأن الله لم يخلق فى قلوبهم الهدى حين لم يوفقهم إلى الإيمان، أى أن الله جبلهم غير قابلين للهدى، فلم يجعل لهم قبوله فى قلوبهم، فلا يحل بها شىء من الهدى.

وفيه تنبيه على أن الله متصرف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته، وما سبق من نظام تدبيره[٢].

هذا.. وقد عقب صاحب صفوة التفاسير على هذه الآية بقوله: ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين: الأول لعمله الصالح، ومثَّل له بالسراب الخادع، والثانى لاعتقاده السيء، ومثل له بالظلمات المتراكم بعضها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ مقابل قوله فى المؤمن ﴿ **نور على نور** ﴾ فكان هذا التمثيل والبيان فى غاية الحسن والجمال، فللّه ما أروع تعبير القرآن[٣]!! حقا ما أروع التعبير القرآنى العظيم.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: جـ١١ ص ٦٠١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٩ ص ٢٥٧.
(٣) ينظر: صفوة التفاسير للصابونى جـ١٠ ص ٢٤.

المطلب الثالث

دراسة وتحليل الآيات التى اشتملت على لفظ النور

ورد فى القرآن الكريم تسع عشرة آية ذكرت فيها كلمة النور فقط منها خمس آيات مكية وأربع عشرة آية مدنية. إنه لتنزيل رب العالمين. وإليك عزيزى القارىء تلك الآيات:

أولا: الآيات المكية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾[1].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[2].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[3].

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾[4].

---

(١) سورة الانعام الآية (٩١).
(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٧).
(٣) سورة يونس الآية (٥).
(٤) سورة الزمر الآية (٢٢).

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾(١).

ثانيا: الآيات المدنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾(٢).

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾(٣).

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٤).

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٥).

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٦).

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٧).

---

(١) سورة الزمر الآية (٦٩).
(٢) سورة النساء الآية (١٧٤).
(٣) سورة المائدة الآية (١٥).
(٤) سورة المائدة الآية (٤٤).
(٥) سورة المائدة الآية (٤٦).
(٦) سورة التوبة الآية (٣٢).
(٧) سورة النور الآية (٣٥).

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

الآية الثامنة: قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢).

الآية التاسعة: قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾(٣).

الآية العاشرة: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(٤).

الآية الحادية عشرة: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥).

الآية الثانية عشرة: قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٦).

الآية الثالثة عشرة: قال تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٧).

الآية الرابعة عشرة: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

---

(١) سورة الشورى الاية (٥٢).
(٢) سورة الحديد الآية (١٢).
(٣) سورة الحديد الآية (١٣).
(٤) سورة الحديد الآية (١٩).
(٥) سورة الحديد الآية (٢٨).
(٦) سورة الصف الآية (٨).
(٧) سورة التغابن الآية (٨).

نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

هذه الآيات المكية والمدنية التى ذكرت فيها كلمة النور فقط وفى هذا المطلب كسابقة سأحاول جاهدا تحليل ودراسة هذه الآيات فى ما تيسر لى من كتب التفسير وأقوال العلماء كاشفا اللثام عن المعنى المراد من كلمة النور فى كل آية وما اشتملت عليه من أسرار ولطائف بلاغية.

أولا: الآيات المكية:

الآية الأولى: قال تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[٢].

المعنى العام:

هذه الآية الكريمة يبين الله فيها أن هؤلاء الذين أنكروا الوحى وبعثة الرسول ما عرفوا الله حق معرفته وما عظموه حق تعظيمه حين قالوا منكرين لبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وإنزال الكتب كافرين بنعمه الجليلة «ما أنزل الله على بشر من شىء»[٣]، واختلف فى قائلى ذلك القول الشنيع، فأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أنهم مشركو قريش. والجمهور على أنهم اليهود ومرادهم من ذلك الطعن فى رسالته ﷺ على سبيل المبالغة، فقيل لهم على سبيل الإلزام: «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» أى قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبنى إسرائيل.

---

(١) سورة التحريم الآية (٨).
(٢) سورة الأنعام الآية (٩١).
(٣) ينظر: روح المعانى للالوسى جـ٥ ص ٩٠.

قال السيوطى فى أسباب نزول هذه الآية : أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبى ﷺ، فقال له النبى : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين، وكان حبراً سمينا فغضب، وقال ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه، ويحك ولا على موسى، فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره » الآية[١].

قوله تعالى : ﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ أى تكتبونه فى قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون، وتخفون ما تشاءون منها . والمراد من الكثير نعوت النبى ﷺ وسائر ما كتموه من أحكام التوراة كرجم الزانى المحصن.

قال الطبرى : « ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته »[٢].

وقوله تعالى : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ أى : علمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته فى هذا القرآن الكريم ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ أى قل لهم فى الجواب : الله أنزل هذا القرآن . ثم اتركهم فى باطلهم الذى يخوضون فيه يهزءون ويلعبون، فلا عليك بعد إلزام الحجة وإسكاتهم .

دراسة وتحليل :

قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شـــىء ﴾ ذكر الألوسى أنه قيل : إنه سبحانه لما ذكر شأن القرآن العظيم وأنه نعمة جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما نطق به قوله عز وجل : ﴿ وما أرسلناك إلا

---

(١) ينظر : لباب النقول فى أسباب النزول على هامش تفسير الجلالين جـ١ ص ١٢٧ .

(٢) ينظر : الطبرى جـ١١ ص ٥٢٧ .

رحمة للعالمين ﴾ عقب ذلك ببيان غمطهم إياها وكفرهم بها على وجه سرى ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلهية(١).

فالآية بيان لجحودهم وإنكارهم للقرآن وغيره من الكتب السماوية وكشف عدم معرفتهم لله حق المعرفة حين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، ومن هنا أفادت التأكيد. ومقالهم هذا يعم جميع البشر لوقوع النكرة في سياق النفي لنفي الجنس، ويعم جميع ما أنزل باقترانه بمنْ في حيز النفي للدلالة على استغراق الجنس أيضا، ويعم إنزال الله تعالى الوحي على البشر بنفي المتعلّق بهذين العمومين.

والمراد « بشيء » هنا شيء من الوحي. أي: أيّ شيء من الوحي، وفيه مبالغة في إنكارهم نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل. وقوله تعالى: ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس** ﴾ فيه إلزامهم بما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام، وأدرج تحت إلزامهم توبيخهم، وأن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم، وإبداء بعض وإخفاء بعض(٢). فالاستفهام هنا للتبكيت والتوبيخ « والنور » استعارة للوضوح والحق، فإن الحق يشبه بالنور، كما يشبه الباطل بالظلمة. ومعنى كون التوراة هدى للناس: أنه يرشد من وقف عليه بالواسطة أو بدونها إلى ما ينجيه من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا** ﴾ قراطيس جمع قرطاس. وهو الصحيفة من أى شيء كانت من رَقٍّ أو كاغد أو خرقة، وبين تبدون وتخفون طباق أدى إلى إبراز المعنى ووضوحه وهو من المحسنات البديعية. وهما أى تبدونها وتخفون كثيرا صفة لقراطيس، أى تبدون بعضها، وتخفون كثيرا منها، وعليه فالمعنى تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. يقول صاحب التحرير والتنوير: وهذه الصفة فى محل الذّم، فإن الله أنزل كتبه للهدى، والهدى

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي جـ٥ ص ٩١.

(٢) ينظر: الكشاف جـ٢ ص ٢٦ بتصرف.

بها متوقف على إظهارها وإعلانها، فمن فرّقها ليظهر بعضا ويخفى بعضا فقد خالف مراد الله منها، فأما لو جعلوه قراطيس لغير هذا القصد لما كان فلهم مذموما، كما كتب المسلمون القرآن فى أجزاء منفصلة لقصد الاستعانة على القراءة[١].

والخطاب فى تجعلونه وتبدونها وتخفون لليهود وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب فنزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة.

وقوله: ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ كما قال الألوسى. نقلا عن أبى البقاء. فى موضع الحال من فاعل «تجعلونه» بإضمار قد أو بدونه.. وعليه فينبغى أن يجعل (ما) عبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع، لأعلى ما تلقوه من جهة النبى ﷺ زيادة على ما فى التوراة، وبيانا لما التبس عليهم، وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ لأن تلقيهم ذلك ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة، فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق أن تقع موقع الحال[٢].

وقوله ﴿ **قل الله** ﴾ جواب الاستفهام التقريرى، وقد تولى السائل الجواب لنفسه بنفسه؛ لأن المسؤول لا يسعه إلا أن يجيب بذلك، لأنه لا يقدر أن يكابر. والمعنى: قل الله أنزل الكتاب على موسى.

وفيه إشارة إلى أنهم ينكرون الحق مكابرة منهم، وإشعاراً بتعين الجواب، وإيذانا بأنهم أفحموا ولم يقدروا على التكلم أصلا[٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٣٦٥.
(٢) ينظر: روح المعانى للألوسى جـ٥ ص ٩١.
(٣) ينظر: روح المعانى للألوسى جـ٥ ص ٩١.

وقوله: ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ عطف بثم هنا للدلالة على الترتيب الرتبي، أي أنهم لا تنجح فيهم الحجج والأدلة فَتَرْكُهُم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى، ولكن الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم. وهذا وعيد لهم وتهديد على إجرامهم.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

المعنى العام:

يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الذين تنالهم الرحمة التي تحدث عنها في قوله تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون**﴾ هؤلاء هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبي العربي الأمي أي: الذي لا يقرأ ولا يكتب.

قال البيضاوي: وإنما سماه رسولا بالإضافة إلى الله تعالى، ونبيًا بالإضافة إلى العباد[٢] هذا النبي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل.

قال ابن كثير: هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم. كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الحريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب. قال: جَلَبْتُ حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله فلما فرغت من بيعي قلتُ لألقين هذا الرجل، فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي ص ٢.

نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه : هكذا. أي : لا، فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولى كفنه والصلاة عليه . . . وقال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال : أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرًا** ﴾ وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا : لا إله إلا الله، ويفتح به قلوبا غلفا، وآذانا صما، وأعينا عميا . قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا إلا أن كعب قال : بلغته قال : قلوبا غلوفيا، وآذانا صموميا، وأعينا عموميا وقد رواه البخاري في صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن علي فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله : ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح . وذكر حديث عبد الله بن عمرو . ثم قال : ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم[١] .

﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ أي : لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن، ولا ينهى إلا عن كل شيء قبيح، وهذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة . قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تُنهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[٢] .

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٥١، ٢٥٣ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٥٤ .

﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾(١)، ويحرم عليهم الخبائث من نحو : الدم والميتة ولحم الخنزير، والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله، فكل ما أحل الله من المأكل فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾. أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التى تشبه الأغلال، كقتل النفس فى التوبة، وقطع النجاسة من الثوب، والقصاص من القاتل عمدا كان القتل، أو خطأ، وشبه ذلك مما فيه مشقة، فهو صلى الله عليه وسلم جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا »، وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى : إنى صحبت رسول الله ﷺ، وشهدت تيسيره، وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقال « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه قد فعلت قد فعلت(٣).

---

(١) سورة آل عمران الآية (٩٣).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٦).
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٥٤.

﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه** ﴾ أى: فالذين صدقوا بمحمد وعظموه ووقروه ونصروا دينه ﴿ **واتبعوا النور الذى أنزل معه** ﴾ أى: القرآن المنير وشرعه المجيد الذى جاء به مبلغا إلى الناس ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾. أى هم الفائزون بالسعادة فى الدنيا والآخرة.

دراسة وتحليل:

فى قوله تعالى: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ قدم وصف الرسول على النبى لأنه الوصف الأخص الأهم، ولأن فى تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب. حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقا بمن أتى بعد موسى من انبياء بنى إسرائيل.

والأمى: الذى لا يعرف الكتابة والقراءة؛ قيل هو منسوب إلى الأم، أى: هو أشبه بأمه منه بأبيه لأن النساء فى العرب ما كُنَّ يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمنها إلا فى الإسلام.. أما الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب. وقيل: منسوب إلى الأمة، وعليه يكون المعنى: النبى الذى حاله حال معظم الأمة. أى: الأمة المعهودة عندهم، وهى العربية، وكانوا فى الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب بالأميين، لما حكى الله تعالى عنهم فى قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ﴾[1].

والأمية: وصف خص الله به من رسله محمداً ﷺ، إتماما للإعجاز العلمى العقلى الذى أيده الله به، فكانت الأمية وصف كمال فيه، مع أنها فى غيره وصف نقصان.

ومعنى ﴿ **يجدونه مكتوبا** ﴾ وجدان صفاته ونعوته التى لا يشبهه فيها غيره، فجعلت خاصته بمنزلة ذاته. واطلق عليها ضمير الرسول النبى الأمى مجازا بالإستخدام، وإنما الموجود نعته ووصفه، والقرينة قوله ﴿ **مكتوبا** ﴾ فإن الذات لا

---

(١) سورة آل عمران الآية (٧٥).

تكتب، وعُدل عن التعبير بالوصف للدلالة على أنهم يجدون وصفا لا يقبل الالتباس. وهو: كونه أميا، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، وشدة شريعتهم[١] ومعنى قوله تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ أى يبطل تشريعه، وحقيقة الوضع الحط من علو إلى سفل. وهو هنا مجاز فى إبطال التكليف بالأعمال الشاقة، فالفعل « يضع عنهم » هنا استعير إلى ازالة التكليفات التى هى كالأصر، والأغلال، فيشمل الوضع معنى النسخ وغيره.

﴿ والأغلال ﴾ جمع غُل، وهو إطار من حديد يجعل فى رقبة الأسير، والجانى، ويمسك بسير من جلد أو سلسلة من حديد بيد المُوكَّل بحراسة الأسير. قال تعالى ﴿ إذا الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ ويستعار الغُل للتكليف والعمل الذى يؤلم ولا يطاق فهو استعارة تصريحيه، ومناسبة إستعارة الأغلال للذلة لما فيها من شعار الإذلال فى الأسر والقود ونحوهما.

يقول الزمخشرى: الاصر: الثقل الذى يأصر صاحبه. أى يحبسه من الحراك لثقله، وهو مثل لثقل تكليفهم، وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس فى صحة توبتهم، وكذلك الأغلال مثل لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية...[٢]».

وقوله ﴿ واتبعوا النور ﴾ تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن: شبه حال المقتدى بهدى القرآن بحال السارى فى الليل إذا رأى نورا يلوح له اتبعه، لعلمه بأنه يجد عنده منجاة من المخاوف واضرار السير، وإجزاء هذا التمثيل استعارات، فالاتباع يصلح مستعاراً للاقتداء، وهو مجاز شائع فيه، والنور يصلح مستعاراً للقرآن، لأن الشيء الذى يُعلمِّ الحق والرشد يشبه بالنور.

واسم الإشارة فى قوله ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ للتنويه بشأنهم، وللدلالة

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٥ ص ١٣٤ بتصرف.
(٢) ينظر: الكشاف جـ٢ ص ٩٧ بتصرف.

على أن المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا حرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

وقد أفاد تعريف المسند وضمير الفصل قصر الفلاح على من آمن بالرسول ﷺ واتبعه دون من كفر به، وكاف البعد في أولئك، للإيذان ببعد المنزلة، وعلو الدرجة في الفضل والشرف.

وفي قوله تعالى ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ فيه محسن بديعي وهو ما يسمى بالمقابلة وهي تفيد المعنى بيانًا ووضوحًا.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾(١).

المعنى العام:

يخبر الله سبحانه وتعالى عبادة في هذه الآية الكريمة عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وانفراده بالتصرف في المخلوقات. استدلالا ممزوجا بالامتنان علي المخاطبين به لما تضمنته هذه الأشياء التي خلقها من خصائص يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما، وتقدير تنقلاتهما تقديرا مضبوطا، ألهم الله البشر للانتفاع به في شئون كثيرة من شئون حياتهم.

فجعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً، لانتفاع الناس به في مشاهدة ما تهمهم مشاهدته بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم، وجعل الشعاع

---

(١) سورة يونس الآية (٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٦ ص ٩٣، ٩٤ بتصرف.

الصادر عن جرم القمر نورا لانتفاع الناس بنوره انتفاعا مناسبا للحاجة التى قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء فى وقت الظلمة فى الليل. ولذلك جُعل نوره أضعف ليُنتفع به بقدر ضرورة المنتفع، فمن لم يضطر إلى الانتفاع به لا يشعر بنوره، ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذى جُعل ظلام الليل لحصوله، ولو جعلت الشمس دائمة الظهور للناس لاستووا فى استدامة الانتفاع بضيائها فيشغلهم ذلك عن السكون الذى يستجدُّون به ما فَتَر من قواهم العصبية التى بها نشاطُهم، وكمال حياتهم[١].

لذا فاوت سبحانه وتعالى بين الشمس والقمر لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى فى تمام شهر كقوله تعالى: ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾[٢].

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ **وقدره منازل** ﴾ أى: قدَّر سيره فى منازل وهى البروج والمراد بها هنا المواقع التى يظهر القمر فى جهتها كل ليلة من الشهر، وهى ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالى الشهر القمرى.

وقد أنبأ الله بعلة تقديره القمر منازل بأنها معرفة الناس عدد السنين والحساب، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿ **وما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة فى ذلك، وحجة بالغة كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾[٣].

---

(١) سورة يس الآية (٣٩، ٤٠).
(٢) سورة الأنعام الآية (٩٦).
(٣) سورة ص الآية (٢٧).

وقوله ﴿ **نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى: نبين الحجج والأدلة لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته. قال أبو السعود: أى يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا** ﴾. الضمير «هو» عائد إلى اسم الجلالة فى قوله السابق ﴿ **إن ربكم الله** ﴾ وهذه الآية استدلال آخر على انفراده سبحانه بالتصرف فى المخلوقات. بعد الاستدلال السابق فى قوله: ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض... الآية** ﴾.

والضياء: النور الساطع القوى، لأنه يضىء للرائى، وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذى يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء ولذا ناسب وصف شعاع الشمس به[٢].

والنور: الشعاع، وهو اسم مشتق من اسم النار، وهو أعم من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوى، فضياء الشمس نور، ونور القمر ليس بضياء ولذا ناسب وصف القمر به[٣].

ولما جعل النور فى مقابلة الضياء تعين أن المراد به نورٌ ما. وقوله ﴿ **ضياء** ﴾، و ﴿ **نوراً** ﴾ حالان مشيران إلى الحكمة والنعمة فى خلقهما، والتقدير: جعل الأشياء على مقدارٍ عند صُنعها[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **وقدره منازل** ﴾ أي قدر وهيأ للقمر منازل: وهى جمع منزل؛ وهو مكان النزول، والمراد بها هنا المواقع التى يظهر القمر فى جهتها كل ليلة من الشهر، وهى ثمانية وعشرون منزلا، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣١٠.

(٢) ينظر: لسان العرب مادة (ض و ء).

(٣) ينظر: لسان العرب مادة (نور).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير جـ٦ ص ٩٤.

يتخطاه، ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت، يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، فإذا كان فى آخر منازله دق واستقوى ثم يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص الشهر، ويكون مقام الشمس فى كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما، وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة(١).

وقد خصص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وتعلق أحكام الشريعة به، وكونه عمدة فى تواريخ العرب.

وقوله تعالى: ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ ذكر علة لتقديره سبحانه القمر منازل: وهو معرفة الناس عدد السنين والحساب مما يتعلق به مصالحهم الدينية والدنيوية.

والحساب: مصدر حسب بمعنى عدّ، وهو معطوف على (عدد)، أي ولتعلموا الحساب. وهو حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالى. لأن حساب السنين قد ذكر بخصوصه، ولما اقتصر فى هذه الآية على معرفة عدد السنين تعين أن المراد بالحساب حساب القمر، لأن السنة الشرعية قمرية، ولأن ضمير (قدره) عائد على (القمر) وإن كان للشمس حساب آخر وهو حساب الفصول.

فمن معرفة الليالى تعرف الأشهر، ومعرفة الأشهر تعرف السنة، وفى ذلك رفق بالناس فى ضبط أمورهم وأسفارهم ومعاملات أموالهم، وهو أصل الحضارة، وفى هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن معرفة ضبط التاريخ نعمة أنعم الله بها على البشر(٢).

وقوله تعالى: ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ جملة مستأنفة كالنتيجة للجملة السابقة كلها، والغرض منها هو التنبيه إلى ما فى المخلوقات التى سبق ذكرها من الحكمة ليستدل بذلك على أن خالقهما فاعل مختار حكيم، ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم، وفى هذا أيضا رد على المشركين الذين لم

---

(١) ينظر: تفسير أبو السعود جـ٢ ص ٣٠٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٦ ص ٩٦ بتصرف.

يهتدوا لما فى ذلك من الحكمة الدالة على الوحدانية، وأن الخالق لها ليس آلهتهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾(١)، وقال أيضا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ **نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ فيه إمتنان بالنعمة، وتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحتوى عليه من البيان.

وبين لفظ الجلالة فى قوله تعالى ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ والضمير المستتر فى «نفصل» التفات من الغيبة إلى التكلم وفيه تنبيه السامع ولفت انتباهه.

وفى التعبير بالمضارع (نفصل) إفادة التكرر والتجدد. وخصص التفصيل بقوم يعلمون لأن العلماء أهل العقول الراجحة هم المنتفعون بالأدلة والبراهين.

وفى ذكر كلمة (قوم) إيماء إلى أنهم رسخ فيهم وصف العلم، وفى هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بتفصيل الآيات ليسوا من الذين يعلمون، ولا ممن رسخ فيهم العلم(٣).

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٤).

المعنى العام:

لما بالغ سبحانه وتعالى فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى، ووجوب الإعراض عن الدنيا فى الآيات السابقة بين بعد ذلك فى

---

(١) سورة ص الآية (٢٧).
(٢) سورة الدخان الآية (٣٨، ٣٩).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ٦ ص ٩٧ بتصرف وتفسير أبو السعود جـ٢ ص ٣١٠.
(٤) سورة الزمر الآية (٢٢).

هذه الآية أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور، ونوّر القلوب فقال تعالى ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ .

أى: أفمن وسع الله صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدى من ربه بتنوير الحق فى قلبه، كمن هو أعمى القلب معرض عن الإسلام؟

قال الطبرى: وترك الجواب اجتزاء بمعرفة السامعين، وبدلالة ما بعده وتقديره: كمن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[1].

روى مرة عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قوله تعالى: ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نوره من ربه** ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح» قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ . قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله» . وخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلا قال يا رسول الله أى: المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذاكر وأحسنهم له استعدادًا وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آية ذلك يا نبى الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» .

فذكر ﷺ خصالا ثلاثة، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان، فإن الإنابة إنما هى أعمال البر، لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله فى مواضع فى تنزيله، ثم قال بعقب ذلك: «جزاء بما كانوا يعملون» فالجنة جزاء الأعمال، فإذا انكمش العبد فى أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود، وإذا خمد حرصه عن الدنيا ولها عن طلبها، وأقبل على ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع، فقد تجافى عن دار الغرور، وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرًا

---

(١) ينظر: تفسير الطبرى جـ٢٣ ص ١٣٤ .

فى كل أمره، واقفا متادبا متثبتا حذرا بتودّع عما يريبه إلى ما لا يريبه، فقد استعد للموت، وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب[1].

وقوله تعالى: ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ أى: فويل للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله.

قال أبو السعود: من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور، وتطمئن به القلوب، أى: إذا ذكر الله تعالى عندهم، أو آياته اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى «فزادتهم رجسا» وقرىء عند ذكر الله. أى: عن قبوله[2].

أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب فى بعد بيِّن عن الحق.

قال الفخر الرازى: إن الله تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيِّرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلاهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات، وفى هذا التفاوت أمر حاصل فى جواهر النفوس البشرية، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك.

إذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود فى فطرة النفس، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بادنى سبب، مثل الكبريت الذى يشتعل بادنى نار.

أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية، بل كانت مستغرقة فى طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات، فكانت قاسية كدرة ظلمانية، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل.

---

(١) بنظر: تفسير القرطبى جـ١٥ ص ٢٤٧، ٢٤٨.
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ٣ ص ٣٠٧.

إذا عرفت هذه القاعده فنقول : أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة، وما لم يحصل شرح الصدر أولاً لم يحصل النور ثانيا، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع ألبتة بسماع الدلائل، وربما صار سماع الدلائل سببا لزيادة القسوة ولشدة النفرة... إذا عرفت هذا لم يبعد أيضا أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والإطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية. إذا عرفت هذا فنقول : إن رأس الأدويةالتى تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سببا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفوس مرضا لا يرجى زواله، ولا يتوقع علاجه، وكانت فى نهاية الشر والرداءة، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين** ﴾[1].

دراسة وتحليل:

فى هذه الآية الكريمة عدة نكات بلاغية عظيمة : فالإستفهام فى قوله تعالى ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ استفهام تقريرى يؤكد المعنى ويقويه فى ذهن السامع... وفى الآية إيجاز بالحذف حيث إن « مَنْ» مبتدأ حذف خبره، دل عليه قوله تعالى « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه كمن طبع الله على قلبه وقسا وشرح الصدر للإسلام، استعارة لقبول العقل هَدْى الإسلام ومحبته.

وحقيقة الشرح أنه : شق اللحم، ومنه سمى علم مشاهدة باطن الأسباب وتركيبه علم التشريح لتوقفه على شق الجلد واللحم والاطلاع على ما تحت ذلك[2].

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازى جـ١٥ ص ٤١٩-٤٢١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٧٩.

هذا.. ومن فصاحة ألفاظ القرآن الكريم ورشاقتها إيثار كلمة (شرح) للدلالة على قبول الإسلام، لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحا بحاله ومسرة برضى ربه، واستخفافا للمصائب والكوارث لجزمه بأنه على حق فى أمره، وأنه مثاب على ضرِّه، وأنه راج رحمة ربه فى الدنيا والآخرة، ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره فلا يحس بضيق ولا انطباق فى صدره بل يحس كأن صدره شُرح ووُسع.

« والنور » مستعار للهدى ووضوح الحق، لأن النور به تنجلى الأشياء، ويخرج المبصر من غياهب الضلالة، وتردد اللبس بين الحقائق والأشباح، فالنور هنا بمعنى الهداية والطمأنينة والمعرفة واستعيرت (على) إستعارة تبعية للتمكن من النور، و « من ربه » نعت لنور، و « من » ابتدائية، أى: نور موصوف بأنه جاء به من عند الله، فهو نور كامل لا تخالطه ظلمة، وهو النور الذى أضيف إلى اسم الله فى قوله ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾[1].

وفى قوله تعالى ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين** ﴾. أجمل الله سبحانه وتعالى سوء حال هؤلاء الذين قست قلوبهم من ذكر الله بما تدل عليه كلمة « ويل » من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة.

والقاسى: المتصف بالقساوة فى الحال، وحقيقة القساوة: الغلظ والصلابة فى الأجسام.

وقسوة القلب: مستعارة لقلة تأثر العقل بما يُسدى إلى صاحبه من المواعظ ونحوها.

و (مِنْ) فى قوله « من ذكر الله) يجوز أن تكون بمعنى (عن) بتضمين « القاسية » معنى المعرضة والنافرة. ويجوز حملها على معنى التعليل قاله الزمخشرى، وجعل المعنى: أن قسوة قلوبهم حصلت فيهم من أجل ذكر الله.

---

(١) سورة النور الآية (٣٥).

والمراد بذكر الله القرآن وإضافته إلى الله زيادة تشريف له. والمعنى: أنهم إذا تليت آية اشمأزوا فتمكن الاشمئزاز منهم فقست قلوبهم.

يقول صاحب التحرير والتنوير: وحاصل المعنى: أن كفرهم يحملهم على كراهية ما يسمعونه من الدعوة إلى الإسلام بالقرآن، فكلما سمعوه أعرضوا وعاندوا، وتجددت كراهية الإسلام فى قلوبهم حتى ترسخ تلك الكراهية فى قلوبهم، فتصير قلوبهم قاسية. فكان القرآن سبب اطمئنان قلوب المؤمنين. قال تعالى ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾. وكان سببا فى قساوة قلوب الكافرين وسبب ذلك اختلاف القابلية فإن السبب الواحد تختلف آثاره وأفعاله باختلاف القابلية... فذكر الله سبب فى لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حلّ فيها هذا المرض صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضا مما كانت عليه(١).

وجملة ﴿ **أولئك فى ضلال مبين** ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن ما قبله من الحكم بأن قساوة قلوبهم من أجل أن يذكر الله عندهم يثير فى نفس السامع أن يتساءل: كيف كان ذكر الله سبب قساوة قلوبهم؟. فأفيد بأن سبب ذلك هو أنهم متمكنون من الضلالة منغمسون فى حَمْأتها، فكان ضلالهم أشد من أن ينقشع حين يسمعون ذكر الله.

وقد أفاد إفتتاح هذه الجملة باسم الإشارة عقب ما وصفوا به من قساوة القلوب أن ما سيذكر من حالهم أحرياء به ويستحقونه. وهو الضلال الشديد.

والمبين معناه الشديد الذى لا يخفى لشدته. وهو كناية عن القوة والرسوخ، فهو يُبين للمتأمل أنه ضلال واضح ظاهر.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾(٢).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٨٢.

(٢) سورة الزمر الآية (٦٩).

المعنى العام:

لما ذكر الله تعالى النخفتين نفخة الصعق ونفخة البعث فى الآية السابقة بين فى هذه الآية الكريمة هيئة أرض المحشر والحساب وبعض مشاهد هذا اليوم المشهود فقال تعالى: ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾. أى: وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى البارى جل وعلا لفصل القضاء بين العباد. هذه الأرض المذكورة ليست هى هذه الأرض التى نعيش عليها الآن، بدليل قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ** ﴾[1]، وبدليل قوله تعالى أيضا: ﴿ **وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** ﴾[2] بل هى أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة.

وعن النور الذى يضىء الأرض يوم القيامة يحدثنا الإمام القرطبى فيقول: ومعنى «بنور ربها» بعدل ربها؛ قاله الحسن وغيره، وقال الضحاك: بحكم ربها؛ والمعنى واحد؛ أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضىء به الأرض، وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتى لفصل القضاء، والمعنى أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حد إضافة الملك إلى المالك[3].

﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ أى. أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب فآخذ بيمينه وآخذ بشماله، وجىء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم، وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم قال تعالى: ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾. فالسائق يسوقها إلى الحساب،

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤٨).
(٢) سورة الحاقة الآية (١٤).
(٣) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٥ ص ٢٨٢.

والشاهد يشهد عليها وهو الملك الموكل بالإنسان . وقضى بين العباد جميعا بالقسط والعدل وهم لا يظلمون شيئا من أعمالهم، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب .

قال سعيد بن جبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم(١) .

قال تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾(٢) .

دراسة وتحليل:

صورت هذه الآية الكريمة جلال ذلك الموقف المهيب أبدع تصوير فى كلمات تنبض بعظمة الخالق وقدرته وعدله المطلق .

فقوله تعالى : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ تعبير يدل على عظمة الله تعالى وسلطان قدرته . والتعريف فى الأرض تعريف العهد الذكرى الضمنى، فقد تضمن قوله ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ أنهم قيام على قرار فإن القيام يستدعى مكانا تقوم فيه تلك الخلائق، وهو أرض الحشر، وهى الساهرة فى قوله تعالى فى سورة النازعات : ﴿ **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ** ﴾(٣) وفسرت بأنها الأرض البيضاء النفيسة، وليس المراد الأرض التى كانوا عليها فى الدنيا، فإنها قد اضمحلت . قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾(٤) .

وإشراق الأرض: انتشار الضوء عليها . وإضافة النور إلى الرب إضافة تعظيم وتشريف للمضاف . كما أن إضافة (رب) إلى ضمير الأرض أفادت تشريف المضاف إليه وهى الأرض العائد إليها هذا الضمير .

---

(١) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٥ ص ٢٨٣ .
(٢) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .
(٣) سورة النازعات الآية ١٣، ١٤ .
(٤) سورة إبراهيم الآية (٤٨) .

وقد ذهب المفسرون فى بيان المراد بالنور فى الآية إلى طرائق شتى بين جانب منها القرطبى فى تفسيره على ما ذكرت فى المعنى العام للآية. وقد رجح الطاهر بن عاشور فى تفسيره أنه نور خاص خلقه الله فيها لا بسطوع مصباح ولا بنور كوكب شمس أو غيرها[١].

وقوله ﴿ ووضع الكتاب ﴾ الوضع: الحط، والمراد به هنا الإحضار، والكتاب: «ال» فيه لتعريف الجنس والمراد به: كتب الأعمال كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾[٢]، وقال أيضا: ﴿ مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[٣] أى أحضرت صحائف أعمال العباد للحساب بما فيها من صالح وسيىء.

وقوله: ﴿ وجىء بالنبيين والشهداء ﴾. أى: جىء بالنبيين للشهادة على أممهم أنهم بلغوا رسالة ربهم، والشهداء: جمع شهيد وهو الشاهد. قيل: المراد الشهداء من الملائكة الحفظة الموكلين بإحصاء أعمال العباد. وقيل: الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد ﷺ. وقيل: المراد بالشهداء الذين استشهدوا فى سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبَّ عن دين الله[٤].

وقوله تعالى: ﴿ وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ تصوير للمحكمة الإلهية الكاملة التى أشرقت بنور العدل، وصدر الحكم على ما يستحقه المحكوم فيهم من كرامة ونذالة. فقد صدر القضاء فيهم بما يستحقون وهو مسمى الحق، فمن القضاء ما هو فصل بين الناس فى معاملات بعضهم مع بعض من كل ظالم ومظلوم، ومعتد ومعتدى عليه فى اختلاف المعتقدات، واختلاف المعاملات[٥]. قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٦].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٦٦.
(٢) سورة الإسراء الآية (١٣).
(٣) سورة الكهف الاية (٤٩).
(٤) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٥ ص ٢٨٢، ٢٨٣.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٦٧.
(٦) سورة الجاثية الآية (١٧).

ثم إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن الأفعال التي وردت في الآية جاءت بصيغة الماضي «أشرقت، وضع الكتاب، وجيء بالنبيين، وقضى» وهذا يدل على تحقق الوقوع لا محالة، فسبحانه يستوى في حقه الحاضر والماضي والمستقبل.

ثانيا: الآيات المدنية

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾[1].

المعنى العام:

يقول تعالى مخاطبا جميع الناس، ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبه. ولهذا قال ﴿ **وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾، أى: ضياء واضحا على الحق. قال ابن جريج وغيره: هو القرآن[2].

وحول قوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾ يحدثنا الشيخ سيد قطب في تفسيره فيقول وفي هذا القرآن نور... نور تنجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً مرسوما.. في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء... حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولا، فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحا.. حيث يتلاشى الغبش وينكشف؛ وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة... ومهما قلت في هذا التعبير ﴿ **وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾ فإننى لن أصور بألفاظى حقيقته، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه؛ ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعانى، ولا بد من التذوق الذاتى، ولا بد من التجربة المباشرة[3].

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٩٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن جـ٢ ص ٨٢٢.

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم** ﴾ خطاب لجميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم للأخذ بالهدى ونبذ الضلال، بما اشتمل عليه القرآن من دلائل الحق وكبح الباطل. والبرهان: يعنى محمداً ﷺ، وسماه برهانا لأن معه البرهان وهو المعجزة. قاله الثورى، وقال مجاهد: البرهان ههنا الحجة. والمعنى متقارب؛ فإن المعجزات حجته ﷺ.

والنور المنزل هو القرآن، وسماه نور لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أى واضح بين[١]. ففى كلمة النور هنا استعارة تصريحية للقرآن والقرينة قوله: ﴿ **أنزلنا** ﴾.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾[٢].

المعنى العام:

كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهم إلى الإسلام نبى ليس منهم، نبى من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قَبْلُ ويتعالمون، لأنهم هم أهل الكتاب، وهؤلاء أميون، فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة، الشاملة للبشر أجمعين، وعلَّمَ هؤلاء الأميين، فإذا هم أعلم أهل الأرض، وأرقاهم تصوراً واعتقادا وأقومهم منهجا وطريقا، وأفضلهم شريعة ونظامًا، وأصلحهم مجتمعا وأخلاقا.. وكان هذا كله من فضل الله عليهم، ومن إنعامه بهذا الدين وارتضائه لهم.

وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب اليهود والنصارى، يسجل عليهم أنهم

---

(١) ينظر: تفسير القرطبى جـ٦ ص ٢٧.

(٢) سورة المائدة الآية (١٥).

مدعوون إلى الإسلام، مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه، ويسجل عليهم شهادته -سبحانه- بأن هذا النبى الأمى هو رسوله إليهم كما أنه رسول إلى العرب، وإلى الناس كافة - فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً، ولا مجال للإدعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانيا.

فهو رسول الله إليكم. ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذى معكم، سواء فى ذلك اليهود والنصارى، وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين وهو التوحيد، وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة، كرجم الزانى، وتحريم الربا كافة. كما أخفوا جميعًا يهوداً ونصارى خبر بعثته ﷺ: ﴿ **النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾.. كما أنه ﷺ يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه، مما لم يرد به شرعه. فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعدله عمل فى المجتمع الإنسانى... ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول ووظيفته فى الحياة البشر وما قدر الله من أثره فى حياة الناس. وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب، وعلى طبيعة هذا المنهج من أنه نور.

إنها حقيقة يجدها المؤمن فى قلبه وفى كيانه، وفى حياته وفى رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان فى قلبه.. نور تشرق به كينونته، ويشرق به كل شىء أمامه فيتضح وينكشف ويستقيم[1].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **يا أهل الكتاب** ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنس شامل للتوراة والإنجيل إثر بيان أحوالهم من الخيانة وغيرها من فنون القبائح فى الآيات السابقة، ودعوة لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن.

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٢ ص ٨٦١، ٨٦٢.

وإيرادهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة فى التشنيع؛ فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته، والعمل بمقتضاه، وبيان ما فيه من الأحكام، وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون.

والإضافة فى قوله تعالى ﴿ **قد جاءكم رسولنا** ﴾ للتشريف والإيذان بوجوب اتباعه ﷺ. وقوله تعالى ﴿ **يبين لكم** ﴾ حال من رسولنا، وإيثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان، أى: قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدرج حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله تعالى: ﴿ **كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾. المراد بالكتاب. التوراة والإنجيل. وفى تقديم الجار والمجرور «لكم» على «كثير» إظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر لأن ما حقه التقديم إذا أخر لا سيما مع الاشعار بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس مترقبة إلى وروده فيتمكن عندها إذا ورد فضل تمكن، ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاذب أطراف النظم الكريم.

والجمع بين صيغتى الماضى «كنتم» والمستقبل «تخفون» أفاد استمرارهم على الكتم والاخفاء أى: يبين لكم كثيرا من الذى تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى أنتم أهله والمتمسكون به كبعثته ﷺ، وآية الرجم فى التوراة، وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام فى الإنجيل.

وقوله ﴿ **ويعفوا عن كثير** ﴾. أى: ولا يظهر كثيرا مما تخفونه إذا لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم الإظهار بالعفو، وفيه حث لهم على عدم الإخفاء ترغيبا وترهيبا. وقيل: يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه[1].

---

(١) ينظر: تفسير أبو السعود جـ٢ ص١٣، ١٤.

وقوله تعالى: ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ﷺ ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع لا تحصى، وتقديم الجار والمجرور (من الله) على الفاعل « نور » للمسارعة إلى بيان كون المجيء من جهته العالية والتشويق إلى الجائى، ولأن فيه نوع تطويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم، وتنوين « نور » للتفخيم.

والمراد بالنور والكتاب المبين القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك، وإبانة ما خفى على الناس من الحق والإعجاز البين، والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات.

وقيل: المراد بالنور هو الرسول ﷺ، وبالكتاب المبين القرآن الكريم[١].

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾[٢].

المعنى العام للآية:

مدح الله تعالى فى هذه الآية التوراة بأنها نور وضياء فقال سبحانه ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ أى: أنزلنا التوراة على موسى فيها بيان واضح، ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام، فإن ما فيها من الشرائع والأحكام من حيث ارشادها للناس إلى الحق الذى لا محيد عنه هدى، ومن حيث إظهارها وكشفها ما استبهم من الأحكام، وما يتعلق بها من الأمور المستورة بظلمات

---

(١) ينظر: تفسير أبو السعود جـ٢ ص ١٤ وتفسير القرطبى جـ٦ ص ١١٨.
(٢) سورة المائدة الآية (٤٤).

الجهل، نور ويحكم بها النبيون الذين أسلموا » أي يحكم بالتوراة أنبياء بنى إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله.

قال الألوسى: « والمراد من النبيين من كان منهم من لدن موسى إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام على ما رواه ابن أبى حاتم عن مقاتل، وكان بين النبيَّيْن عليهما السلام ألف نبى.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن المراد بهم نبينا ﷺ ومن قبله من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام، وعلى هذا بنى الاستدلال بالآية من قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ »[١].

قوله ﴿ للذين هادوا ﴾ أى: يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها، ولا يبدلونها ولا يحرفونها. وقوله تعالى ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ أى الزهاد والعلماء من ولد هارون الذين التزموا طريقة النبيين، وجانبوا دين اليهود.

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم، ويربونهم بصغاره قبل كباره، والأحبار هم الفقهاء[٢].

وقوله: ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ أى بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع، وهو التوراة حيث سألهم النبيون أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق، وإيرادها بعنوان الكتاب للإيماء إلى إيجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة، ولا ريب فى أن ذلك منهم عليهم السلام مشعر باستخلافهم فى إجراء أحكامها من غير إخلال بشىء منها.

وقوله تعالى ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ أى: رقباء لئلا يبدل ويغير ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾. أى: لا تخافوا يا علماء اليهود الناس فى إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ، والرجم. بل خافوا منى فى كتمان ذلك، فإن النفع

(١) ينظر تفسير الألوسى جـ٤ ص ٤٤.
(٢) ينظر: تفسير أبو السعود ص ٣١.

والضر بيدى ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ أى: لا تستبدلوا بآياتى حطام الدنيا الفانى من الرشوة والجاه والعرض الخسيس.

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾. أى من لم يحكم بشرع الله كائنا من كان فقد كفر. وقال الزمخشرى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به فأولئك هم الكافرون، والظالمون والفاسقون وصفٌ لهم بالعتو فى كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الكافرين والظالمين والفاسقين أهل الكتاب، وعنه: نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم، وما كان من مرّ فهو لأهل الكتاب من جَحَدَكم حكمَ الله كَفَرَ، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق... وعن ابن مسعود هو عام فى اليهود وغيرهم، وعن حذيفة أنتم أشبه الأمم سمتا ببنى إسرائيل لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا »[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة، ووجوب مراعاة أحكامها، وأنها لم تزل مرعية فيما بين الأنبياء، ومن يقتدى بهم كابرًا عن كابر، مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل، تحقيقا لما وُصفَ به المحرفون من عدم إيمانهم بها وتقريراً لكفرهم وظلمهم. ووصفها بالنزول ليدل على أنها وحى من الله، فاستعير النزول لبلوغ الوحى لأنه بلوغ شيء من لدن عظيم، والعظيم يتخيل عاليا.

وقوله ﴿ فيها هدى ونور ﴾. أى: إرشاد للناس إلى الحق، وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم.. والنور: استعارة للبيان والحق، ولذلك عطف على الهدى، فأحكامها هادية وواضحة. والظرف «فيها» خبر مقدم، و «هدى» مبتدأ مؤخر، والجملة حال من التوراة. أى كائنا فيها ذلك[٢].

---

(١) ينظر: الكشاف جـ١ ص ٣٤١.

(٢) ينظر: تفسير الألوسى جـ٤ ص ٦٤٨.

وقـــوله: ﴿ **يحكم بهـا النبيـون الذين أسلمـوا للذين هادوا** ﴾ قـــال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿ **يحكم بها النبيـون** ﴾ أى: أنبياء بنى إسرائيل موسى ومن بعده من الأنبياء جملة مستأنفة مبينة لرفعه رتبتها -أي التوراة- وسمو طبقتها... وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للإعتناء بشأن المقدم، والتشويق إلى المؤخر[١].

﴿ **الذين أسلمـــوا** ﴾ صفـة أجريت على النبـيين على سبـيل المدح دون التخصيص والتوضيح، لكن لا للقصد إلى مدحهم بذلك حقيقة؛ فإن النبوة أعظم من الإسلام قطعا، فيكون وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الأعلى إلى الأدنى، بل لتنويه شأن الصفـة، فإن ابرز وصف فى معرض مدح العظماء منبىء عن عظم قدر الوصف لا محالة، كما فى وصف الأنبياء بالصلاح، ووصف الملائكة بالإيمان عليهم السلام، ولذلك قيل أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف، وفيه رفع شأن المسلمين، وتعريض باليهود، وأنهم بمعزل عن الإسلام والاقتداء بدين الأنبياء، عليهم السلام، لا سيما مع ملاحظة ما وصفوا به فى قوله تعالى ﴿ **للذين هادوا** ﴾. قاله أبو السعود[٢].

وقال ابن المنير ردا على ما ذهب إلى الزمخشرى[٣]: من أنها صفـة أجريت على النبيين على سبيل المدح ما يوافق ذلك فقال: جرى وصف الأنبياء فى هذه الآية بالإسلام تنويها به، ولقد أحسن القائل: فى أوصاف الأشراف والناظم فى مدحه عليه الصلاة والسلام.

فلئن مدحت محمداً بقصيدتى فلقـد مدحت قصيدتى بمحمد

والإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له ويستحيل عليه ويجوز فى حقه إلا أن النبوة أشرف، وأجل لاشتمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التى لاتسعها العبارة، فلو لم نذهب إلى الفائدة

---

(٣) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣٠.
(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣٠.
(٢) ينظر: الكشاف جـ١ ص ٣٤٠.

المذكورة في ذكر الإسلام بعد النبوة في سياق المدح لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز، وفي كلام العرب الفصيح، وهو الترقي من الأدنى إلى الأعلى، لا النزول إلى العكس[١].

قوله تعالى: ﴿**للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله**﴾.

﴿**الذين هادوا**﴾ هم اليهود، وهم اسم يرادف معنى الإسرائيليين إلا أنه أصله يختص ببني يهوذا منهم، فغلب عليهم من بعد.

﴿**والربانيون والأحبار**﴾ هم الزهاد والعلماء من ولد هارون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود.. وهو عطف على النبيين أي: هم أيضا يحكمون بأحكامها.

وتوسيط المحكوم لهم –وهم الذين هادوا– بين المعطوفين للإيذان بأن الأصل في الحكم بها وحمل الناس على ما فيها هم النبيون، وإنما الربانيون والاحبار خلفاء ونواب لهم في ذلك كما ينبى عنه قوله تعالى ﴿**بما استحفظوا**﴾. أي بالذى استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة، حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق، ولا ريب في أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم في إجراء أحكامها من غير إخلال بشيء منها[٢].

والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانةُ فهمه حق الفهم بما دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذى هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه.

فالباء في قوله ﴿**بما استحفظوا**﴾ للملابسة. أى حكما ملابسا للحق متصلا به غير مبدّل ولا مغير، ولا مؤول تأويلا لأجل الهوى. ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأول بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

---

(١) ينظر الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف جـ١ ص ٣٤٠ – ٣٤١.
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ٢ ص ٣١.

قال صاحب التحرير والتنوير: ومن لطائف القاضى إسماعيل بن إسحاق بن حَمَّاد ما حكاه عياض فى المدارك عن أبى الحسن ابن المنتاب. قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن. فقال: لأنّ الله تعالى قال فى أهل التوراة ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾ فوكل الحفظ إليهم. وقال فى القرآن ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ فتعهد الله بحفظه فلم يجز التبديل على أهل القرآن[١].

و (من) مبينة لإبهام (ما) فى قوله تعالى ﴿ **بما استحفظوا** ﴾ وكتاب الله هو التوراة فهو من وضع المظهر موضع المضمر، ليتأتى التعريف والإضافة المفيدة لتشريف التوراة وتمجيدها بإضافتها إلى اسم الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿ **وكانوا عليه شهداء** ﴾. أى: رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه. أو شهداء عليه أنه حق.

وقوله تعالى ﴿ **فلا تخشوا الناس** ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة. والفاء لجواب شرط محذوف. أي: إذا كان الشأن كما ذكر يا أيها الأحبار ﴿ **فلا تخشوا الناس** ﴾ كائنا من كان، واقتدوا فى مراعاة أحكام التوراة وحفظها بمن قبلكم من النبيين والربانيين والأحبار، ولا تعدلوا عن ذلك، ولا تحرفوا خشية من أحد.

﴿ **واخشون** ﴾ فى ترك أمرى فإن النفع والضر بيدى، أو ﴿ **واخشون** ﴾ فى الإخلال بحقوق مراعاتها فضلا عن التعرض لها بسوء[٢].

وفى قوله تعالى ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا** ﴾ استعار تصريحية تبعية فى الفعل ﴿ **تشتروا** ﴾ حيث إن الاشتراء استبدال السلعة بالثمن. أى أخذها بدلا منه، لا بذل الثمن لتحصيلها. ثم استعير لأخذ شىء بدلا مما كان له عينا كان أو معنى أخذا منوطا بالرغبة فيما أخذ، والإعراض عما أعطى ونبذ. فالمعنى لا

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٢٠٩.
(٢) ينظر تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣١.

تستبدلوا بآياتي التي في التوراة بأن تخرجوها. منها، أو تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلا منها ثمنا قليلا من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية، فإنها وإن جَلَتْ قليلة مسترزلةٌ في نفسها.

وقد عُبِّر عن المشترى الذى هو العمدة في عقود المعارضة والمقصد الأصلى بالثمن الذى من شأنه أن يكون وسيلة إلى تحصيله، وأُبْرِزَتْ الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون فى معرض الآلات والوسايط، حيث قرنت بالباء التى تصحب الوسائل إيذانا بمبالغتهم فى التعكيس؛ بأن جعلوا المقصد الأقصى وسيلة، والوسيلة الأدنى مقصداً[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾. أى: ومن حكم ولم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون لاستهانتهم به. وجملة ﴿ **فأولئك هم الكافرون** ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير، وتحذير عن الإخلال به أشد تحذير، حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه لا سيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه، ووضع غيره موضعه، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا[(٢)].

هذا.. وهناك أقوال أخرى. فليرجع إليها من أراد[(٣)].

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾[(٤)].

(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣١ بتصرف.
(٢) ينظر المرجع السابق جـ٢ ص ٣٢.
(٣) ينظر: تفسير الألوسى جـ٤ ص ٦٥٤ – ٦٥٧.
(٤) سورة المائدة الآية (٤٦).

المعنى العام للآية:

تفيد الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أتبع على آثار أنبياء بنى إسرائيل بعيسى بن مريم، وأرسله عقبهم مصدقا لما تقدمه من التوراة، فاعتمد شريعتها، وآتاه الإنجيل، وجعل فيه هدى إلى الحق، ونور يُستضاء به فى إزالة الشبهات، وليكون منهج حياة، وشريعة حكم. هذا ولم يتضمن الإنجيل فى ذاته تشريعا إلا تعديلات طفيفة فى شريعة التوراة، ومعترفا بأن التوراة من عند الله. وقوله تعالى ﴿**وهدى وموعظة للمتقين**﴾. أي هاديا وواعظا للمتقين. فالمتقون هم الذين يجدون فى كتب الله الهدىٰ والنور والموعظة، هم الذين تتفتح قلوبهم لما فيه لما فى هذه الكتب من الهدى والنور، وهم الذين تتفتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور.

أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة، فلا تبلغ إليها الموعظة، ولا تجد فى الكلمات معانيها، ولا تجد فى التوجيهات روحها، ولا تجد فى العقيدة مذاقها، ولا تنتفع من هذا الهدى، ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب، فالنور موجود، ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة، وإن الهدى موجود ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة، وإن الموعظة موجودة، ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعى.

وقد جعل الله فى الإنجيل هدى ونوراً وموعظة للمتقين، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل، -أى إنه خاص بهم، فليس رسالة عامة للبشر- شأنه فى هذا شأن التوراة، وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول قبل هذا الدين الأخير -أعنى الإسلام- ولكن ما طابق من شريعته – التى هى شريعة التوراة حكم القرآن فهو من شريعة القرآن كما مر فى شريعة القصاص.

﴿**وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه**﴾ فالقاعدة هى الحكم بما أنزل الله دون سواه، وأهل الإنجيل واليهود كذلك لن يكونوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل -قبل الإسلام- وما أنزل إليهم من ربهم -بعد الإسلام- فكله شريعة

واحدة، هم ملزمون بها. وشريعة الله الأخيرة هى الشريعة المعتمدة والمقبولة عند الله[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم** ﴾ شروع فى بيان أحكام الإنجيل إثر بيان أحكام التوراة، وهو معطوف على ﴿ **أنزلنا التوراة** ﴾ انتقالا إلى أحوال النصارى.

وقوله ﴿ **على آثارهم** ﴾ تأكيد لمدلول فعل قفينا وإفادة سرعة التقفيه.

وقوله ﴿ **مصدقا لما بين يديه** ﴾ حال من عيسى عليه السلام، والمصدِّق: المخبِر بتصديق مخبرٍ، وأريد به هنا المؤيد المقرر للتوراة، وجَعَلَها بين يديه، لأنها تقدَّمته، والمتقدم يقال: هو بين يدى من تقدم و «من التوراة» بيان «لما».

وقوله: ﴿ **وآتيناه الإنجيل** ﴾ معطوف على قفينا. وقوله ﴿ **فيه هدى ونور** ﴾ جملة فى محل نصب حال من الإنجيل. أى كائنا فيه ذلك، كأنه قيل مشتملا على هدى ونور. وتنوين هدى ونور للتفخيم[٢].

وقوله: ﴿ **ومصدقا لما بين يديه من التوراة** ﴾ عطف عليه داخل فى حكم الحالية من الإنجيل ويرى أبو السعود والآلوسى أن فى قوله تعالى ﴿ **مصدقا لما بين يديه من التوراة** ﴾ تكرير أفاد زيادة التقرير[٣].

ويرى الطاهر بن عاشور: أنه لا تكرير فى الآية؛ لاختلاف صاحب الحال، ولاختلاف كيفية التصديق، فتصديق عيسى التوراة أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديق حقيقىٌ، وتصديق الإنجيل التوراة اشتماله على ما وافق أحكامها فهو تصديق مجازى. وهذا التصديق لا ينافى أنه نَسخَ بعض أحكام التوراة كما حكى

(١) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٦ ص ٩٠٠، ٩٠١ بتصرف.
(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣٢.
(٣) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٣٢، وتفسير الآلوسى جـ٤ ص ٦٦٤.

الله عنـه ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾ لأن الفعل المثبت لا عموم له[1]. وهذا ما أميل إليه لقوة حجته. والمعنى يؤيده.

وقوله: ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ خص الهداية والموعظة بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه، والمنتفعون بجدواه.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[2].

المعنى العام للآية:

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين، وأهل الكتاب «أن يطفئوا نور الله بأفواههم» أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم، وافترائهم، فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخة، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ أى. ويأبى الله إلا أن يعلى دينه، ويرفع شأنه ولو كره الكافرون من أهل الكتاب وغيرهم ذلك[3].

- ويحضرنى فى هذا المقام ما قاله صاحب ظلال القرآن فى معنى هذه الآية الكريمة إذ يقول: «إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند الإنحراف عن دين الحق، وعبادة أرباب من دون الله، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر. وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر - إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق، ويريدون إطفاء نور الله فى الأرض المتمثل فى هذا الدين، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض، وفى المنهج الذى يصوغ على وفقه حياة البشر. ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير حـ٥ ص ٢١٩.

(٢) سورة التوبة الآية (٣٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير حـ٢ ص ٣٤٩ بتصرف.

فهم محاربون لنور الله، سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن، أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سداً فى وجهه - كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص، وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

وهذا التقرير - وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك - هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل فى دينه الحق الذى يهدى الناس بنور الله. ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾.

وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التى لا تتبدل، فى إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون، وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى الطريق، وعلى الكيد والحرب من الكافرين. والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم - أى فى الآيات السابقة على هذه الآية - كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين، وأمثالهم على مدار الزمان»[١].

دراسة وتحليل:

جاءت الآية الكريمة بعد عدة آيات تحدثت عن كيفية المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى وعقيدتهم الفاسدة لتكشف ما يضمرونه للإسلام من الممالاة، والتألب على مناوأة الدين، حين تحققوا أنه فى انتشار وظهور، فثار حسدهم، وخشوا ظهور فضله على دينهم، فالضمير فى قوله «يريدون» عائد إلى «الذين أوتوا الكتاب».

قوله تعالى: ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ تمثيل لحالهم فى محاولة تكذيب النبى ﷺ وصد الناس عن إتباع الإسلام، وإعانة المناوئين للإسلام بالقول والإرجاف، والتحريض على المقاومة، والإنضمام إلى صفوف الأعداء فى

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٦٤٣.

الحروب، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة، بحال من يحاول إطفاء نور بنفخ فمه عليه.

فهذا الكلام مركب مستعمل فى غير ما وضع له على طريقة تشبيه الهيئة بالهيئة، ومن كمال بلاغته أنه صالح لتفكيك التشبيه، بأن يشبه الإسلام وحده بالنور، ويشبه محاولو إبطاله بمر يدى إطفاء النور، ويشبه الإرجاف والتكذيب بالنفخ، ومن الرشاقة أنّ آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة وهى الأفواه[1].

وفى إضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث وأنّ أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

وقوله تعالى: ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره** ﴾. الإباء: الامتناع عن الفعل، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من يحاوله محاول على فعل وهو يمتنع منه؛ لأنهم لما حاولوا طمس الإسلام كانوا فى نفس الأمر محاولين إبطال مراد الله تعالى، فكان حالهم، فى نفس الأمر كحال من يحاول من غيره فعلا وهو يأبى أن يفعله.

وهنا إستثناء مفرغ وإن لم يسبقه نفى لأن فعل «يأبى» أجرى مجرى نفى الإرادة، فكأنه قيل: «ولا يريد الله إلا أن يتم نوره»، ولوقوعه فى مقابلة قوله تعالى: «يريدون». وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الإرادة. أى: لا يريد شيئا من الأشياء إلا إتمام نوره، فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء[2].

وقد جىء بهذا التركيب هنا لشدة مما حكة أهل الكتاب وتصلبهم فى دينهم فهو مناسب لحالهم من الدعوة الإسلامية، ولم يُجأ به فى سورة الصف إذ قال: ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره** ﴾ لأنه يكشف عن حال

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٠ ص ١٧١.

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ٢٦٧.

المنافقين، والمنافقون كانوا يكيدون للمسلمين خُفية وفى لين وتملق. على خلاف ما عليه اليهود والنصارى(١).

وفى قوله ﴿يتم نوره﴾ إيذان بالزيادة والإنتشار يوما بعد يوم للإسلام، ولذلك لم يقل: ويأبى الله إلا أن يُبْقِىَ نوره.

وفى إظهار النور فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف، وإشعار بعلة الحكم.

ولو فى قوله تعالى ﴿ولو كره الكافرون﴾ اتصالية. وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة، وكلتاهما فى موقع الحال، أى لا يريد الله إلا إتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك، ولو كرهوه. أى: على كل حال مفروض، وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردًا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة، لأن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى، ففيه من المبالغة ما فيه(٢).

ثم إن المبالغة بكراهية الكافرين ترجع إلى المبالغة بآثار تلك الكراهية، وهى التألب والتظاهر على مقاومة الدين وإبطاله، وأما مجرد كراهيتهم فلا قيمة لها عند الله تعالى حتى يبالغ بها(٣).

الآية السادسة:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٣ ص ١٧٢ بتصرف.

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٣ ص ٢٦٧ بتصرف.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ٣ ص ١٧٢ بتصرف.

(٤) سورة النور الآية (٣٥).

المعنى العام:

ورد أكثر من قول[١] فى معنى قوله تعالى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ أقربها ما يدور حول ما أشار إليه الصابونى وهو أن الله جل وعلا منور السموات والأرض، أنار السموات بالكواكب المضيئة، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام[٢].

قال الطبرى: أى: هادى أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون[٣].

وقال القرطبى: النور عند العرب: الضوء المدرك بالبصر، واستعمل مجازاً فى المعانى فيقال: كلام له نور قال الشاعر:

نسب كأن عليه شمس الضحى — نوراً ومن فلق الصباح عمودا

وقال جرير: وأنت لنا نور وغيث وعصمة. والناس يقولون: فلانٌ نور البلد، وشمس العصر وقمره، فيجوز أن يقال: الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وبقدرته استقامت أمورها[٤].

وقال ابن عطاء الله: «الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه، إذ لولا وجود الله ما وجد شىء من العالم»[٥]. وفى الحديث «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن».

وقال ابن مسعود: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض نور وجهه».

وقال ابن القيم: سمَّى الله سبحانه نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور[٦].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٨٩.

(٢) ينظر. صفوة التفاسير ص ٢١.

(٣) ينظر: تفسير الطبرى جـ١٨ ص ١٠٥.

(٤) ينظر تفسير القرطبى جـ١٢ ص ٢٥٦.

(٥) الحكم لابن عطاء الله السكندرى.

(٦) ينظر: صفوة التفاسير ص ٢١ نقلا عن محاسن التاويل.

وقوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ أى: مثل نور الله سبحانه فى قلب عبده المؤمن ككوة فى الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء، وضع فيها سراج ثاقب ساطع.

قال فى التسهيل: المعنى صفة نور الله فى وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة -وإن كان نُور الله أعظم- لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل[1].

ويقول صاحب ظلال القرآن: هو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود، ويرسم النموذج المصغر الذى يتأمله الحس، حين يقصر عن تملى الأصل، وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشرى الحسير[2].

وقوله تعالى: «المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنه كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية» أى: المصباح فى قنديل من الزجاج الصافى تشبه الكوكب الدرى فى صفائها وحسنها، يشتعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة، هى من شجر الزيتون الذى خصه الله بمنافع عديدة، هذه الشجرة ليست فى جهة الشرق ولا فى جهة الغرب، وإنما هى فى صحراء، منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى. قال ابن عباس رضى الله عنه: هى شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يواريها شىء، وهو أجود لزيتها[3].

﴿يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار﴾ أى يكاد زيت هذه الزيتونة يضىء من صفائه وحسن ضيائه ولو لم تمسه نار، فكيف إذا مسته النار؟ ﴿نور على نور﴾ أى: نور فوق نور، فقد اجتمع نور السراج، وحسن الزجاجة، وصفاء الزيت، فاكتمل النور الممثل به.

---

(١) ينظر: التسهيل جـ٣ ص ٦٧.
(٢) ينظر: فى ظلال القرآن: جـ٤ ص ٢٥١٩.
(٣) ينظر: مختصر ابن كثير جـ٢ ص ٦٠٦.

﴿ **يهــدى الله لنوره من يـشــاء** ﴾ أى: يوفق الله لاتبـاع نوره – وهو القـرآن الكريم – من يشـاء من عـبـاده ﴿ **ويضـرب الله الأمـثـال للناس والله بكـل شىء عـلـيـم** ﴾ أى: يبين الله سبحانه الأمثال تقريباً. لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم، والله سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شىء من أمر الخلق(١).

قـال فى ظلال القـرآن: إنه نور الله الذى أشـرقت به الظلـمـات فى السـمـوات والأرض، النور الذى لا تدرك كنهـه ولا مـداه، إنما هى مـحـاولة لوصل القلوب به، والتطلع إلى رؤياه، يهدى الله لنوره من يشاء ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه. فهـو شـائع فى السـمـوات والأرض، فـائض فى السـمـوات والأرض، دائم فى السـمـوات والأرض، لا ينقطع، ولا يحتبس، ولا يخبو، فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلّع إليه الحائر هداه، وحيـثـما اتصل به وجد الله، إنما المثل الذى ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك، وهو العليم بطاقة البشر(٢).

دراسة وتحليل:

قـوله تعـالى: ﴿ **الله نور السـمـوات والأرض** ﴾ النور: حـقـيـقـتـه الإشراق والضـيـاء، وهو اسم جـامـد فـهـو كـالمصـدر، وبذلك كـان الإخـبـار به منزلة الإخـبـار بالمصـدر، أو باسم الجنس فى إفـادة المبـالغـة، لأنه اسم مـا هيـة من المواهى، فـهـو والمصدر سواء فى الاتصاف.

قال الغزالى فى رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار: النور: هو الظاهر الذى به كل ظهـور، أى الذى تنكشف به الأشـيـاء، وتنكشف له، وتنكشف منه، وهو النور الحقيقى وليس فوقه نور، وجعل اسمه تعالى النور دالا على التنزه عن العدم، وعلى إخراج الأشياء كلها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، فآل إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار، والتبيين فى الخلق والإرشاد والتشريع(٣).

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير القسم العاشر ص ٢٢ بتصرف.
(٢) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٤ ص ٢٥٢٠.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ٩ ص ٢٣٢.

يقول صاحب التحرير والتنوير: فأحسن ما يفسر به قوله تعالى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التى بها حسن العاقبة فى العالَمَيْن العلوى والسفلى. وهو من استعمال المشترك فى معانيه[١].

وقوله تعالى: ﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **نور على نور** ﴾ جرى كثير من المفسرين على ما يقتضى أنها بيان لقوله تعالى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ فيكون موقعها موقع عطف البيان، فلذلك فصلت فلم تعطف.

والمراد ﴿ **بنوره** ﴾ كتابه أو الدين الذي اختاره، فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذى حفّتَ به وسائل قوة الإشراق، فهو نور الله لا محالة.

وقوله ﴿ **كمشكاة فيها مصباح** ﴾ المقصود كمصباح فى مشكاة. وإنما قُدم «المشكاة» فى الذكر لأن المشبه به هو مجموع الهيئة المركب من أول قوله «كمشكاة» إلى قوله «ولو لم تمسسه نار» فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة «مشكاة» دون لفظ «مصباح» لا يقتضى أصالة لفظ مشكاة فى الهيئة المشبه بها دون لفظ «مصباح» بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهنى فى تصور هذه الهيئة لمتخيلة حين يلمح الناظر إلى انبثاق النور، ثم ينظر إلى مصدره فيرى مشكاة، ثم يبدو له مصباح فى زجاجة[٢].

وفى إعادة لفظ «المصباح» إظهار فى مقام الإضمار للتنويه بذكر المصباح لأنه أعظم أركان هذا التمثيل وكذلك إعادة لفظ «الزجاجة» فى قوله تعالى «الزجاجة كأنها كوكب درى» لأنه من أعظم أركان التمثيل. ويسمى مثل هذه الإعادة تشابه الأطراف فى فن البديع.

والكوكب الدرى. هو الساطع النور مثل الزُهرة والمشترى منسوبة إلى الدَّر

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٩ ص ٢٣٣.
(٢) المرجع السابق ج٩ ص٢٣٥ بتصرف.

فى صفاء اللون وبياضه، وقيل الكوكب الدرى علم بالغلبة على كوكب الزهرة.

وإنما سلك طريق التشبيه فى التعبير عن شدة صفاء الزجاجة لأنه أوجز لفظًا وأبين وصفا».

والإيقاد: وضع الوقود وهو ما يزاد فى النار المشتعلة ليقوى لهبها، وأريد به هنا ما يُمدَّد به المصباح من الزيت. وفى صيغة المضارع على قراءة الأكثرين إفادة تجدد إيقاده، أى: لا يذوى ولا يطفأ. وعلى قراءة ابن كثير ومن معه بصيغة المضى إفادة أن وقوده ثبت وتحقق.

وذكرت الشجرة باسم جنسها ثم أبدل منه «زيتونة» وهو اسم نوعها للإبهام الذى يعقبه التفصيل اهتمام بتقرير ذلك فى الذهن، ووصف الزيتونه بالمباركة لما فيها من كثرة النفع؛ فإنه ينتفع بحبها أكلا وبزيتها كذلك، ويستنار بزيتها، ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة، وينتفع بحطبها وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية، وينتفع بجودة هواء غاباتها.

وقوله ﴿**لا شرقية ولا غربية**﴾ ورد فى معناه أقوال كثيرة أولاها بالقبول أنها بارزة للشمس فى كل حالاتها وهذا أدعى لصفاء زيتها وكثرة طلعها.

قال الفخر الرازى: واعلم أن الأمور التى اعتبرها الله تعالى فى هذا المثال مما توجب كمال الضوء فالأول: المصباح: لأن المصباح إذا لم يكن فى المشكاة تفرقت أشعته، أما إذا وضع فى المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة، والذى يحقق ذلك أن المصباح إذا كان فى بيت صغير فإنه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر فى البيت الكبير.

ثانيها: أن المصباح إذا كان فى زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما فى الزجاجة من الصفاء والشفافية، وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور.

والذى يحقق ذلك أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء، فإن انعكست ذلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثرت الأنوار والأضواء، وبلغت النهاية الممكنة.

ثالثها: أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به، فإذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدراً. وليس فى الأدهان التى توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت، فربما يبلغ فى الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد فى أجزائه.

رابعها: أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس فى كل حالاتها يكون زيتها أشد نضجا، فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره؛ لأن زيادة الشمس تؤثر فى ذلك.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى[1].

وفى قوله تعالى: ﴿**يكاد زيتها يضىء ولم تمسسه نار**﴾ مبالغة مقبوله. توصى بصفاء ونقاء هذا الزيت والتقدير: يكاد زيتها يضيء لو مسته نار، ولو لم تمسسه نار، أى: يضىء كائنا على كل حال من وجود الشرط وعدمه، وقد حذفت الجملة الأولى حسبما هو المطرد فى الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة[2].

وجملة «نور على نور» مستأنفة إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلى هنا هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافى.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب التفسير الكبير جـ١١ ص ٥٨٠، ٥٨١.

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٤ ص ٦١.

فالنور: هو معرفة الحق على ما هو عليه المكتسبة من وحى الله، وهو القرآن الكريم، شبه بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشاراً وإشراقا[١].

وقوله تعالى: ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾ ثلاث جمل تذييل للتمثيل. والمعنى: دفع التعجب من عدم اهتداء كثير من الناس بالنور الذى أنزله الله، وهو القرآن والإسلام؛ فإن الله إذا لم يشأ هَدْىَ أحد خلقه وجبله على العناد والكفر. وفى قوله «يهدى الله لنوره» إظهار فى مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من اضافته إلى ضميره عز وجل[٢].

وإظهار الاسم الجليل فى قوله تعالى ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾ إظهار فى مقام الإضمار للإيذان باختلاف حال ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة، وضرب الأمثال الذى هو من قبيل الهداية العامة، كما يفصح عنه تعليق الأولى بمن يشاء، والثانية بالناس كافة.

وجملة ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ تذييل مقرر لمضمون الجملتين قبلها. أى لا يعذب عن علمه شىء.

ومن ذلك علم من هو قابل للهدى ومن هو مُصِرٌ على غيه. وهذا تعريض بالوعد للأولين، والوعيد للآخرين[٣].

وإظهار الاسم الجليل هنا لتأكيد استقلال الجملة، والاشعار بعلة الحكم، وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتا وتعلقا[٤].

هذا. وفى تكرير لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث تلذذ بذكره واختصاصه سبحانه بما ذكره فسبحان من هذا كلامه.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٩ ص ٢٤٢ بتصرف.
(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٤ ص ٦١.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ٩ ص ٢٤٤.
(٤) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٤ ص ٦١.

الآية السابعة:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

المعنى العام:

لَمَّا بين الله تعالى كيفية أقسام الوحى إلى الأنبياء عليهم السلام فى قوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء** ﴾. قال تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك** ﴾ أى بمثل هذه الكيفية، وبمثل هذا الإتصال الذى وقع للرسل السابقين عليك يا محمد. كان إتصالنا بك ووصينا إليك، ولم يكن أمرك بدعا من الرسل.

أوحينا إليك ﴿ **روحا من أمرنا** ﴾ وهو القرآن الكريم، وقد سمى روحا، لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر. فهو يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب، وفى الواقع العملى المشهود.

وكان مالك ابن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض(٢).

وبقوله تعالى: ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها قبل أن تتلقى هذا الوحى. والمعنى: ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحى ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل.

قال القرطبى فى تفسيره بعد أن ساق أقوالا كثيرة فى معنى الآية: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل من حيث نشأ إلى حين بلوغه، على ما تقدم.

---

(١) سورة الشورى الآية (٥٢).

(٢) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٦ ص ٥٥.

وقيل: «ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان». أى كنت من قوم أُمِّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان حتى تكون أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم، وهو كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾[١]. روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ إشارة إلى طبيعة هذا الوحى، وهذا الروح وهذا الكتاب وهو أنه نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به، بما يعلمه من حقيقتها، ومن مخالطة هذاالنور لها.

﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ أي: وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم هو الإسلام.

يقول صاحب الظلال: وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة، مسألة الهدى، بمشيئة الله سبحانه، وتجريدها من كل ملابسة، وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص، الذى لا يعرفه سواء؛ والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله، فهو لا ينشىء الهدى فى القلوب؛ ولكن يبلغ الرسالة، فتقع مشيئة الله[٣].

دراسة وتحليل:

يؤخذ من اسم الإشارة فى قوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك** ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا.. الآية** ﴾ أن سيدنا محمداً ﷺ قد أعطى أنواع الوحى الثلاثة، وهو أيضا مقتضى الفرض من مساق هذه الآيات.

والروح: ما به حياة الإنسان، وأطلق هنا مجازاً على الشريعة التى بها اهتداء النفوس إلى ما يعود عليهم بالخير فى حياتهم الأولى، وحياتهم الثانية، شبهت

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٦ ص ٦٠.

(٣) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٣١٧٢.

هـــداية عقـولهـم بعــد الضلالـــة بحلـــول الروح فى الجسـد فيصـير حَيًّا بعد أن كان جثة .

والمراد بالروح من أمر الله : ما أوحى به إلى النبى ﷺ من الإرشاد والهداية؛ سواء كان بتلقين كلام معين مأمور بإبلاغه إلى الناس بلفظه دون تغير وهو الوحى بالقرآن المقصود منه أمران : الهداية والإعجاز، أم كان غير مقيد بذلك بل الرسول مأمور بتبليغ المعنى دون اللفظ، وهو ما يكون بكلام غير مقصود به الإعجاز، أو بإلقاء المعنى إلى الرسول بمشافهة الملك، وللرسول فى هذا أن يتصرف من ألفاظ ما أوحى إليه بما يريد التعبير به أو برؤيا المنام أو بالإلقاء فى النفس[١].

واختتام هذه السورة بهذه الآية مع افتتاحها بقوله تعالى ﴿ **كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[٢] فيه محسن بديعى وهو رد العجز على الصدر.

وجـملة ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ فى موضع الحال من ضمير « أوحينا » وفيه تحد للمعاندين ليتأملوا فى حال الرسول ﷺ فيعلموا أن ما أوتيه من الشريعة والآداب الخُلقية هو من مواهب الله تعالى التى لم تسبق له مزاولتها، ويتضمن امتنانا عليه وعلى أمته المسلمين.

وقوله تعالى : ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾. والتقدير : وجعلنا الكتاب نوراً، وأقحم فى الجملة المعطوفة حرف الإستدارك للتنبيه على أن مضمون هذه الجملة عكس مضمون جملة « ما كنت تدرى ما الكتاب » والتقدير : ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ثم هديناك بالكتاب ابتداء، وعرفناك به الإيمان، وهديت به الناس ثانيا، فاهتدى به من شئنا، أى وبقى على الضلال من لم نشأ له الاهتداء، كقوله تعالى ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً** ﴾[٣].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير جـ١٢ ص ١٥٢ .
(٢) سورة الشورى الآية (٣).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٦).

وشبه الكتاب بالنور لمناسبة الهدى به لأن الإيمان والهدى والعلم تشبَّه بالنور، والضلال والجهل والكفر تشبه بالظلمة. وإذا كان السائر فى الطريق فى ظلمة ضل عن الطريق، فإذا استنار له اهتدى إلى الطريق، فالنور وسيلة الاهتداء، ولكن إنما يهتدى به من لا يكون له حائل دون الإهتداء، وإلا لم تنفعه وسيلة الاهتداء، ولذلك قال تعالى «لا نهدى به من نشاء من عبادنا». أى نخلق بسببه الهداية فى نفوس الذين أعددناهم للهدى من عبادنا. فالهداية هنا هداية خاصة وهى خلق الإيمان فى القلب[1].

وفى قوله تعالى ﴿**وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم**﴾ تنويه بشأن الرسول ﷺ. وفى الكلام تعريض بالمشركين، إذ لم يهتدوا به، وإذ كبر عليهم ما يدعوهم إليه مع أنه يهديهم إلى صراط مستقيم.

وحذف مفعول «لتهدى» لإفادة العموم. أى لتهدى جميع الناس، أى ترشدهم إلى صراط مستقيم وتأكيد الخبر «بإن» للاهتمام به، لأن الخبر مستعمل فى تثبيت قلب النبى ﷺ بالشهادة له بهذا المقام العظيم، فالخبر مستعمل فى لازم معناه، على أنه مستعمل أيضا للتعريض بالمنكرين لهديه، فيكون فى التأكيد ملاحظة تحقيقه، وإبطال إنكارهم. وتنكير «صراط» للتعظيم. ولأن التنكير أنسب بقمام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته[2].

وقد عدل عن إضافة «صراط» إلى اسم الجلالة ابتداء لقصد الإجمال الذى يعقبه التفصيل بأن يبدل منه بعد ذلك «صراط الله» ليتمكن بهذا الأسلوب المعنى المقصود فضل تمكن على نحو قوله تعالى ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾[3].

الآية الثامنة والتاسعة:

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٢ ص ١٥٤. (٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٢ ص ١٥٥ بتصرف.
(٣) سورة الفاتحة الآيتان (٦، ٧).

وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[١].

المعنى العام:

بعد أن وعد الله على القرض الحسن، الخالص له، المجرد من كلَ تلفت إلى سواه الضعفَ فى المقدار، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله فى قوله تعالى ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم** ﴾ عرض القرآن الكريم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم، فى مشهد من مشاهد اليوم الذى يكون فيه ذلك الأجر الكريم.

والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد –بين المشاهد القرآنية– وهو من المشاهد التى يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسما قويا: فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهداً عجيبا، هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم وبين أيديهم وبأيمانهم أنوراً تتلألأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر فى سواد الليل. إنه النور الذى أخرجهم الله إليه وبه من الظلمات.

روى «أن نور كل أحد على قدر إيمانه، وأنهم متفاوتون فى النور فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى: ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً مَنْ نوره فى إبهامه يتَّقد مرةً ويطفأ مرة».

---

(١) سورة الحديد: الآيتان (١٢، ١٣).

(٢) ينظر: مختصر ابن كثير جـ٣ ص ٤٤٨.

وأخبر أبو الدرداء وأبو ذر أن النبى ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدى ومن خلفى وعن يمين وعن شمالي فأعرف أمتى من بين الأمم، فقال له رجل يا نبى الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك؟ فقال أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[1].

وقال الزمخشرى: وإنما قال: «بين أيديهم وبأيمانهم» لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم[2].

ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير: «بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم» ذلك الفوز الذى لا فوز بعده لأنه سبب السعادة الأبدية.

ثم إن المشهد لم ينته بعد عند هذا المنظر الطريف اللطيف فهناك المنافقون والمنافقات، فى حيرة وضلال، وفى مهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات.

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام؛ إن صوتا يناديهم: «قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» ويبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير بما كان منهم فى الدنيا من نفاق ودس فى الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا، إلى ما كنتم تعملون، ارجعوا فالنور يلتمس من هناك، من العمل فى الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور.

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات، فهذا يوم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣٠٨.
(٢) ينظر: تفسير الكشاف جـ٤ ص ٣٤٢.

الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: «فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب»[١].

قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من باب، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقى المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة[٢].

وقال الفخر الرازي. والحاصل: أن بين الجنة والنار حائط وهو السور، ولذلك السور باب، فالمؤمنون يدخلون الجنة من باب ذلك السور، والكافرون يبقون في العذاب والنار[٣].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿**يوم ترى المؤمنين والمؤمنات**﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر تنويها بما يحصل في ذلك اليوم من ثواب للمؤمنين والمؤمنات، ومن حرمان للمنافقين والمنافقات، ولذلك كرر «يوم» مع المؤمنين ومع المنافقين، ليختص كل فريق بذكر ما هو من شؤونه في ذلك اليوم.

ويصح جعله ظرفا متعلقا بقوله «يضاعفه له وله أجر كريم» على طريقة التخلص لذكر ما يجري في ذلك اليوم من الخيرات لأهلها ومن الشر لأهله[٤].

وقد عطف المؤمنات على المؤمنين هنا، وفي نظائره من القرآن للتنبيه على أن حظوظ النساء في هذا الدين مساوية حظوظ الرجال إلا فيما خُصصن به من أحكام قليلة لها أدلتها الخاصة، وذلك لإبطال ما عند اليهود من وضع النساء في حالة ملعونات ومحرومات من معظم الطاعات[٥].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن جـ٤ ص ٣٤٨٦.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣٠٦.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب جـ١٥ ص ٣٨٢.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣، ص ٣٧٩.
(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٨٠.

وفى قوله تعالى: ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ أمور أهمها:

أولا: أن النور المذكور هنا نور حقيقى يجعله الله للمؤمنين فى مسيرهم من مكان الحشر إكراما لهم وتنويها بهم فى ذلك المحشر.

ثانيا: فى إضافة النور إلى ضميره، وجَعْلِ مكانه بين أيديهم وبأيمانهم يفيد أنه نور لذواتهم أكرموا به، وخصوا به دون غيرهم.

ثالثا: فى قوله: «يسعى» إستعارة تصريحية تبعية حيث شبه انتشار النور وشموله لأصحابه واصطحابه لهم بالسعى وهو يفيد مصاحبة النور لهم وملازمته لهم وتصويره للناظر وكأنه يسعى.

رابعا: فى ذكر الأيمان تشريفا لهم، وبها يؤتى المؤمنون كتاب أعمالهم قال تعالى ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ مقول قول محذوف: والتقدير يقال لهم. أى يقال لهم من جانب القدس، تقوله الملائكة. وفى قوله تجرى من تحتها الأنهار: مجاز مرسل علاقته المكانية؛ فالأنهار مكان للماء الذى يجرى فيها والأنهار لا تجرى حقيقة وفى هذا مبالغة فى جريان الماء فى الأنهار حتى يخيل لأصحابها وكأن الأنهار التى هى مكان الماء تجرى.

وقوله تعالى: ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ تذييل يدل على مجموع محاسن ما وقعت به البشرى. واسم الإشارة للتعظيم والتنبيه، وضمير الفصل أفاد تقوية الخبر.

وفى قوله تعالى: ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ يعد ذكر الذين آمنوا من باب تغليب الذكور على الإناث؛ لأن المخاطبين هم أصحاب النور وهو للمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) سورة الإنشقاق الآيات (٧، ٨، ٩).

﴿ وانظرونا ﴾ بهمزة وصل مضموماً من نظره، إذا انتظره. مثل نظر، إذا أبصر، إلا أن نظر بمعنى الإنتظار يتعدى إلى المفعول، ونظر بمعنى أبصر يتعدى بحرف (إلى) قال تعالى: ﴿ **وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾[١].

وعليه يجوز أن يكون قولهم (انظرونا) بمعنى انتظرونا، يقول المنافقون ذلك عندما يسرع بالمؤمنين إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تزف بهم، وهؤلاء مشاة فى ظلام دامس، ويجوز أن يكون (انظرونا) بمعنى: انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين أيديهم.

وقرىء أَنْظِرونا من النظرة وهى الامهال جعل اتئادهم فى المعنى إلى أن يلحقوا بهم انظارا لهم[٢].

وقوله ﴿ **نقتبس** ﴾ من الإقتباس، وحقيقته أخذ القَبَس وهو الجذوة من الجمر، والمنافقون طمعوا فى شيء من أنوار المؤمنين أن يقتبسوه كاقتباس نيران الدنيا، ظنوا أن النور الذى كان مع المؤمنين نور شعلة، وحسبوا أنهم يستطيعون أن يأخذوا قبسا منه؛ يُلقى ذلك فى ظنهم لتكون خيبتهم أشد حسرة عليهم، لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة فى الدنيا، فلما لم توجد تلك الأعمال فى الدنيا للمنافقين امتنع حصول تلك الأنوار فى الآخرة.

قال الحسن: يعطى يوم القيامة كل أحد نوراً على قدر عمله، ثم إنه يؤخذ من حر جهنم ومما فيه من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق، فتمضى زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر، ثم تمضى زمرة أخرى كأضواء الكواكب فى السماء، ثم على ذلك تغشاهم ظلمة فتطفىء نور المنافقين. فهنالك يقول المنافقون للمؤمنين ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ كقبس النار[٣].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٩).

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٤ ص ١٣٨.

(٣) ينظر: تفسير الفخر الرازى جـ١ ص ٣٨.

وقال صاحب التحرير والتنوير: ويجوز أن يستعار الاقتباس لانتفاع أحد بضوء آخر لأنه يشبه الاقتباس فى الانتفاع بالضوء بدون علاج فمعنى ﴿ **نقتبس من نوركم** ﴾ نُصب منه ونلتحق به فنستنيرْ به[١].

وفى قوله تعالى: ﴿ **قيل ارْجعوا وراءكم فالتمسوا نُوراً** ﴾ يظهر من إسناد الفعل «قيل» بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين، وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين تهكما؛ إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم، ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة، وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم، فهو من معنى قوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾[٢].

وقوله ﴿ **وراءكم** ﴾ تأكيد لمعنى «ارجعوا» إذ الرجوع يستلزم الوراء. وتقديمه على عامله «التمسوا» للإهتمام، فيكون فيه معنى الإغراء بالتماس النور هناك، وهو أشد فى الإطماع، لأنه يتوهم أن النور يُتناول من ذلك المكان الذى صدر منه المؤمنون[٣].

وقال أبو السعود فى تفسير: «قيل» طرداً لهم وتهكما بهم من جهة المؤمنين، أو من جهة الملائكة «ارجعوا وراءكم» أى: إلى الموقف «فالتمسوا نوراً» فإنه من ثَمَّ يقتبس، أو إلى الدنيا فالتمسوا نوراً آخر، وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما قالوه تخييبا لهم، أو أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم[٤].

وكل هذه الاحتمالات يجوز ورودها. وليس هناك تدافع بينها.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٨٢.
(٢) سورة التوبة آية (٧٩).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٨٣.
(٤) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٤ ص ١٣٨.

وفي قوله تعالى: ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ أمور منها:

أن «ضُرِب» ضمن معنى الحجز فعدى بالباء. أى: ضُرِب سور للحجر به بين المنافقين والمؤمنين خلقه الله ساعتئذ قطعا لأطمعاهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. فحق بذلك التمثيل الذى مثل الله به حالهم فى الدنيا بقوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾(١) وأن الحيرة وعدم رؤية المصير عذاب أليم.

يقول صاحب التحرير والتنوير: ولعل ضرّب السور بينهم وجعل العذاب بظاهره، والنعيم بباطنه قُصد منه التمثيل لهم بأن الفاصل بين النعيم والعذاب هو الأعمال فى الدنيا، وأن الأعمال التى يعملها الناس فى الدنيا منها ما يقضى بعامله إلى النعيم، ومنها ما يفضى بصاحبه إلى العذاب فأحد طرفى السور مثال لأحد العملين، وطرفه الآخر مثال لضده.

ولعل جعل الباب فى سور واحد فيه مع ذلك ليمر منه أفواج المؤمنين الخالصين من وجود منافقين بينهم بمرأى من المنافقين المحبوسين وراء ذلك السور ليجتازوا منه إلى النعيم الذى بباطن السور... والبطون والظهور هنا نسبيان، أى باعتبار مكان المسلمين ومكان المنافقين، فالظاهر هو الجهة التى نحو المنافقين، أى: ضرب بينهم بسور يشاهد المنافقون العذاب من ظاهره الذى يواجههم، وأن الرحمة وراء ما يليهم(٢).

الآية العاشرة:

قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٨٤.
(٣) سورة الحديد الآية (١٩).

المعنى العام:

ذكر الله تعالى قبل هذه الآية حال المؤمنين والمنافقين، وفى هذه الآية ذكر حال المؤمنين والكافرين فعن حال المؤمنين قال: «والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم» أى: الذى صدقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيمانًا راسخا كاملا، لا يخالجه شك ولا ارتياب. هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية، والشهادة فى سبيل الله.

قال مجاهد: «كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيق شهيد»[1].

وتلك خاصية هذا الدين وميزته. إنه طريق مفتوح لجميع البشر، وأفق يتطلع إليه الجميع، ليس فيه احتكار للمقامات، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم، وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات، إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام.

روى الإمام مالك فى كتابه «الموطأ» عن صفوان بن سليم. عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ. قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق إلى المغرب، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[2].

ثم إن الحديث عن مقام الشهداء ورد مرات عدة فى القرآن الكريم، وتواترت به الأحاديث النبوية فهذا الدين لا يقوم بغير حراسه، ولا يتحقق فى الأرض بغير جهاد. جهاد لتأمين العقيدة، وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة، وشريعته من الفساد. ومن ثم كان للشهداء فى سبيل الله وهم وحدهم الذين يسمون شهداء مقامهم، وكان لهم قربهم من ربهم. القرب الذى يعبر عنه بأنهم «عند ربهم».

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ١٥ ص ٣٩١.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣١٢.

جاء فى الصحيحين: «أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعه، فقال: ماذا تريدون، فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة، فقال: إنى قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ - «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء - إلا الشهيد - يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة».

وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه الموحيات، ويعرف مقام الشهادة عند الله.

هذا هو مقام الصديقين والشهداء عند ربهم لهم هذا الأجر الجزيل فى الآخرة، والنور العظيم الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

قال أبو إسحاق عن عمرو بن ميمون: يجيئون يوم القيامة -يعنى الصديقين والشهداء- معًا كالأصبعين»[١].

هذه حال المؤمنين، أما عن حال الكافرين فقال: ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أى والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون فى دار الجحيم.

قال البيضاوى: فيه دليل على أن الخلود فى النار مخصوص بالكفار، من حيث أن الصيغة تشعر بالاختصاص ﴿ **أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ والصحبة تدل على الملازمة»[٢].

دراسة وتحليل:

- قوله تعالى: ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ يعم كل من ثبت له مضمون هذه الصلة وما عطف عليها.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣١٢.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوى جـ٣ ص ٤٥٣.

وفى جمع «ورسله» تعريض بأهل الكتاب الذين قالوا: ﴿ **نؤمن ببعض ونكفر ببعض** ﴾ فاليهود آمنوا بالله وبموسى، وكفروا بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ، والمؤمنون آمنوا برسل الله كلهم، ولذلك وصفوا بأنهم الصدّيقون. وقد أفادت هذه الصيغة المبالغة فى المصَدِّق. وإنما وصفوا بأنهم صدِّيقون لأنهم صدقوا جميع الرسل الحق ولم تمنعهم عن ذلك عصبية ولا عناد.

وضمير الفصل «هم» للقصر، وهو قصر إضافى، أى: هم الصديقون لا الذين كذبوا بعض الرسل، وهذا إبطال لأن يكون أهل الكتاب صدّيقين، لأن تصديقهم رسولهم لا جدوى له إذ لم يصدّقوا برسالة محمد ﷺ.

واسم الإشارة ﴿ **أولئك** ﴾ للتنوية بشأنهم، وللتنبيه على أن المشار إليهم استحقوا ما يرد بعد اسم الإشارة من أجل الصفات التى قبل اسم الإشارة[1].

و ﴿ **عند ربهم** ﴾ متعلق بالاستقرار الذى فى المجرور المخبر به عن المبتدأ، والتقدير: لهم أجرهم مستقر عند ربهم، والعندية مجازية مستعمله فى العناية والحظوة.

وإضافة الأجر والنور إلى ضمير الصديقين والشهداء أفاد أنه أجر يعرَّف بهم ونور يعرف بهم. ولما كان الأجر والنور غير معلومين للسامع. كان فى الكلام إبهام يكنى به عن أجر ونور عظيمين. فهو كناية عن التنويه بذلك الأجر وذلك النور، أى أجراً ونوراً لائقين بمقام، مع ضميمة ما أفادته العندية التى فى قوله ﴿ **عند ربهم** ﴾ من معنى الزلفى والعناية بهم المفيد عظيم الأجر والنور.

وقوله تعالى: ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ تتميم اقتضاه ذكر أهل مراتب الإيمان والتنويه بهم، أفاد أن إيمانهم أنجاهم من هذا الجحيم.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٣٩٧.

والمراد بالذين كفروا بالله وكذبوا بالقرآن ما يشمل المشركين واليهود والنصارى على تفاوت بينهم في دركات الجحيم، فالمشركون استحقوا الجحيم من جميع جهات كفرهم، واليهود استحقوه من يوم كذبوا عيسى عليه السلام؛ والنصارى استحقه بعضهم حين اثبتوا لله ابنا، وبعضهم من حين تكذيبهم برسالة محمد ﷺ.

وفي استحضارهم بتعريف اسم الإشارة من التنبيه على أنهم جديرون بذلك لأجل الكفر والتكذيب.

والتعبير عنهم بأصحاب مضاف إلى الجحيم دلالة على شدة ملازمتهم للجحيم[1].

الآية الحادية عشرة:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[2].

المعنى العام:

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله المؤمنين بهذا النداء الذي يلمس قلوبهم، ويستجدي معنى الإيمان في نفوسهم، ويذكرهم برعايته حق رعايته. كما أن في هذا النداء استجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب، وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله، فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص، معنى حقيقة الإيمان، وما ينبثق عنها من آثار.

﴿ **اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾.. أي يعطيكم نصيبين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة، وزيادة فيض.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٤٠٠.

(٢) سورة الحديد الآية (٢٨).

﴿ **ويجعل لكم نورا تمشون به** ﴾ وهى هبة لدنية يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط، ولا تلتوى بها الطريق، ﴿ **ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ وهذه بشارة ثالثة للمؤمنين المتقين . فالإنسان إنسان مهما وهب من النور، إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق، إنسان يحتاج إلى المغفرة من الذنب فتدركه رحمة الله[1] .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص، وكما فى حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله آجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران . . . وقال سعيد بن جبير لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية فى حق هذه الأمة . ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلمت اليهود، ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء، قال هل ظلمتكم من أجركم شيئا؟ قالوا لا، قال فإنما هو فضل أوتيه من أشاء » . . . . ولهذا قال الله تعالى ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله** ﴾ أى ليتحققوا أنهم لا

---

[1] ينظر: فى ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٤٩٦ .

يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿ **وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾(١).

والأظهر أن المراد بالذين آمنوا من آمن من أهل الكتاب بسيدنا محمد ﷺ، والذين آمنوا من أهل ملة الإسلام لإيمانهم بالأنبياء السابقين وإيمانهم بنبيهم سيدنا محمد ﷺ فلهم مثل أجرى من آمن من أهل الكتاب ويكون معنى وآمنوا برسوله في حقهم طلب الدوام على الإيمان.

دراسة وتحليل:

قوله تعالى ﴿ **اتقوا الله** ﴾ أمر لهم بما هو وسيلة ومقدمة للمقصود وهو الأمر بقوله ﴿ **وآمنوا برسوله** ﴾، ورتب على هذا الأمر ما هو جواب شرط محذوف وهو جملة ﴿ **يؤتكم كفلين** ﴾ إلخ المجزوم في جواب الأمر، أى: يؤتكم جزاء في الآخرة، وجزاء في الدنيا؛ فجزاء الآخرة قوله تعالى: ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ وقوله ﴿ **ويغفر لكم** ﴾، وجزاء الدنيا قوله ﴿ **ويجعل لكم نوراً تمشون به** ﴾.

«والكفل» النصيب. وأصله: الأجر المضاعف. والمعنى: يؤتكم أجرين عظيمين، وكل أجر منهما هو ضعف الآخر مماثل له، وهو ثواب الجنة ونعيمها.

وقوله ﴿ **ويجعل لكم نوراً تمشون به** ﴾ تمثيل لحالة القوم الطالبين التحصيل على رضَى الله تعالى والفوز بالنعيم الخائفين من الوقوع في ضد ذلك بحالة قوم يمشون في طريق بليل يخشون الخطأ فيه فيعطون نورا يتبصرون بالثنايا فيأمنون الضلال فيه. والمعنى: ويجعل لكم حالة كحالة نور تمشون به. أى وييسر لكم دلالة تهتدون بها إلى الحق كما تهتدون بالنور في مشيكم. وجميع أجزاء هذا التمثيل صالحة لتكون استعارات مفردة. وهذا أبلغ أحوال التمثيل وقد عرف في القرآن تشبيه الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والبرهان بالطريق، وإعمال النظر بالمشي(٢).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣١٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٤٢٨، ٤٢٩.

الآية الثانية عشرة:

قال تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾[١].

المعنى العام:

تكشف هذه الآية الكريمة وأمثالها ما جبل عليه المشركون من حقد وعداوة وكره للإسلام ونبى الإسلام والمسلمين والقرآن الكريم، فهم يحاولون فى كل زمان ومكان أن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم، بقولهم فى القرآن إنه سحر، وسيدنا محمد ﷺ ساحر، ولا زالت هذه الافتراآت يتوارثونها جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا، يدسون ويكيدون محاولين القضاء على هذا الدين وهى صورة يائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل. ﴿ **والله متم نورة ولو كره الكافرون** ﴾. وصدق وعد الله. أتم نوره فى حياة الرسول ﷺ. فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهى المختار، وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الإسلام دينا يحبونه، ويجاهدون فى سبيله، ويرضى أحدهم أن يلقى فى النار ولا يعود إلى الكفر. فنمت حقيقة الدين فى القلوب وفى الأرض سواء، ولا تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين على الرغم من كل ما جُرَّ على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد، لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، وإن خُيِّل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد.

جاء فى الحديث الشريف «إن الله زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتى سيبلغ ما زُوى لى منها»[٢]. والمراد أن هذا الدين سينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) سورة الصف الآية (٨).

(٢) ينظر: صفوة التفاسير جـ١٨ ص ٤٥.

دراسة وتحليل:

قوله تعالى ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ استئناف بيانى ناشىء عن الإخبار عنهم بأنهم افتروا على الله الكذب فى حال أنهم يُدعون إلى الإسلام فى قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام** ﴾ وكأن سائلا قال: ما دعاهم إلى هذا الإفتراء؟ فأجيب بأنهم يريدون أن يخفوا الإسلام عن الناس ويعوقوا انتشاره، ومثلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتلصص أو غيره مما يراد فيه الاختفاء. فلاحت له ذُبالة مصباح تضيء للناس، فكرهوا ذلك وخشُوا أن يُشَعَّ نوره على الناس فتفتضح ترهاتهم، فعمدوا إلى إطفائه بالنفخ عليه فلم ينطفيء.

فالكلام تمثيل دال على حالة الممثل لهم، والتقدير: يريدون عوق ظهور الإسلام كمثل قوم يريدون إطفاء النور، فهذا تشبيه الهيئة بالهيئة، تشبيه المعقول بالمحسوس.

ثم إن ما تضمنه هذا التشبيه التمثيلى من محاسن أنه قابل لتفرقة التشبيه على أجزاء الهيئة، فاليهود فى حال إرادتهم عوق الإسلام عن الظهور مُشبهون بقوم يريدون إطفاء نور، والإسلام مشبه بمصباح، ووصفهم القرآن بأنه سحر ونحو ذلك من تمويهاتهم، مشبه بنفخ النافخين على المصباح، فكان لذكر «بأفواههم» وقع عظيم فى هذا التمثيل، لأن الإطفاء قد يكون بغير الأفواه مثل المروحة والكير، وهم أرادوا إبطال آيات القرآن بزعم أنها من أقوال السحر.

وإضافة نور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أى: نور أوجده وقدره، فما ظنكم بكماله.

قال الزمخشرى: وإطفاء نور الله بأفواههم تهكم بهم فى إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم: فى القرآن هذا سحر: شبهت حالهم بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه[1]. وجملة «والله متم نوره» معطوفة على جملة «يريدون»

(١) ينظر: تفسير الزمخشرى جـ٤ ص ٩٤.

وهى إخبار بأنهم لا يبلغون مرادهم وأن هذا الدين سيتم، أى: يبلغ تمام الانتشار. والجملة الأسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام.

والتمام: هو حصول جميع ما للشىء من كيفية أو كمية، فتمام النور: حصول أقوى شعاعه، وإتمامه. إمداد آلته بما يقوى شعاعه كزيادة الزيت فى المصباح، وإزالة ما يغشاه.

وقوله تعالى: ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ جملة حالية، والمعنى: والله متم نوره على فرض كراهة الكافرين، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققة كان سياقها فى صورة الأمر المفتروض تهكما بالكافرين. وقد شمل لفظ «الكافرون» جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم[1].

الآية الثالثة عشر:

قال تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[2].

المعنى العام:

هذه الآية الكريمة من جملة القول المأمور رسول الله ﷺ بأن يقوله. والفاء فصيحة، لأنها تفصح عن شرط مقدر، والتقدير فإذا علمتم هذه الحجج، وتذكرتم ما حل من عقاب بنظرائكم من الأمم الماضية وما ستنبؤون به من أعمالكم يوم القيامة فآمنوا بالله ورسوله والقرآن الذى أنزله فإنه النور والضياء، المبدد للشبهات، كما يبدد النور الظلمات، «والله بما تعملون خبير» لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

دراسة وتحليل:

المراد بالنور فى قوله تعالى: ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا** ﴾

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣.

(٢) سورة التغابن الآية (٨).

القرآن الكريم، وصف بأنه نور على طريقة الإستعارة التصريحية الأصلية، لأنه أشبه النور فى إيضاح المطلوب باستقامة حجته وبلاغة كلامه، وأشبه النور أيضا فى الإرشاد إلى السلوك القويم. وقرينة الإستعارة قوله: ﴿ **الذى أنزلنا** ﴾، وهو إنزال مجازى أريد به تبليغ مراد الله إلى الرسول ﷺ.

وفى قوله ﴿ **الذى أنزلنا** ﴾ التفات من الغيبة إلى المتكلم بنون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال. وزيادة الترغيب فى الإيمان بالقرآن الكريم تزكيرا بأنه منزل من الله.

وجملة ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ تذييل لجملة ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله** ﴾ يقتضى وعداً إنْ آمنوا ووعيداً إن لم يؤمنوا.

وفى ذكر اسم الجلالة إظهار فى مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة جارية مجرى المثل والكلم الجوامع، يقول أبو السعود: والإلتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة(١).

وقد جيء هنا بصفة «الخبير» دون: البصير، لأن ما يعملونه منه محسوسات ومنه غير محسوسات كالمعتقدات، ومنها الإيمان بالبعث، فعُلق بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهى بالموجودات كلها، لأن الخبير: هو العليم بدقائق الأشياء حسية ومعنوية(٢).

الآية الرابعة عشرة:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾(٣).

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٤ ص ١٦٨.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٧٣ بتصرف.
(٣) سورة التحريم الآية (٨).

المعنى العام للآية:

فى هذه الآية الكريمة يوجه الله الذين آمنوا إلى ما يقيهم من النار هم وأهلهم، ويبين لهم الطريق، ويطمعهم بالرجاء، هذا الطريق هو توبة نصوح، توبة عن الذنب والمعصية تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهى بالعمل الصالح والطاعة، فهى عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصى وعكارها، وتحضه على العمل الصالح بعدها.

سئل عمر رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال: هى أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع[١].

قال العلماء: التوبة النصوح هى التى جمعت ثلاثة شروط: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما حدث، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان الحق لآدمى زيد شرط رابع وهو: ردُّ المظالم لأصحابها.

وعن زر بن حبيش عن أبى بن كعب قال: قيل لنا أشياء تكون فى آخر هذه الأمة عن اقتراب الساعة: منها نكاح الرجل امرأته أو أمته فى دبرها وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح الرجل الرجل، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح المرأة المرأة وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليه ورسوله، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبا إلى الله توبة نصوحا» قال زر: فقلت لأبى بن كعب فى التوبة النصوح؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً»[٢].

وقوله تعالى ﴿**عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾. أى لعل الله يرحمكم فيمحوا عنكم ذنوبكم قال المفسرون: «عسى» من الله واجبة بمنزلة التحقيق، وهذا إطماع من الله لعباده فى

---

(١) ينظر: تفسير الخازن جـ٤ ص ١٢٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣٩٢.

قبول التوبة، تفضلا منه وتكرمًا، لأن العظيم إذا وعد وفّى، وعادة الملوك أنهم إذا أرادوا فعلا قالوا «عسى» فهو بمنزلة المحقق(١).

ويدخلكم يوم القيامة حدائق وبساتين ناضرة، تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة، وفى هذا اليوم العظيم أيضا لا يفضح الله النبى وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يعزهم ويكرمهم.

قال أبو السعود: وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق(٢).

ونور هؤلاء المؤمنين يضىء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم كإضاءة القمر فى سواد الليل.

وفى الحديث أن النبى ﷺ سئل: كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم؟ فقال: «غر محجلون من آثار الطهور ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»(٣) هؤلاء المؤمنون يدعون ربهم قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا، ولا تتركنا نتخبط فى الظلمات. قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين»(٤) يدعون ربهم به إشفاقا حتى يصلوا إلى الجنة، ويطلبون منه أن يمحو عنهم ما فرط من الذنوب، مقرين أنه هو وحده القادر على كل شىء من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.

دراسة وتحليل:

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ فيه أمر المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها لأن ذلك من إصلاح أنفسهم بعد أن أمروا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزج بهم فى عذاب النار، لأن اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمى بهم فيها.

---

(١) ينظر: روح المعانى للألوسى جـ٢٨ ص ١٦٠.

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٥ ص ١٧٥.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣٩٣.

(٤) ينظر: تفسير القرطبى جـ١٨ ص ٢٠١.

ووصف التوبة بالنصوح مجاز جعلت التوبة التى لا تردد فيها، ولا تخالطها نية العودة إلى العمل المتوب منه بمنزلة الناصح لغيره. ففى «نصوح» استعارة مكنية.

والرجاء المستفاد من فعل «عسى» فى قوله تعالى «عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم مستعمل في الوعد الصادر عن المتفضل على طريقة الاستعارة، وذلك التائب لاحق له فى أن يعفى عنه ما اقترفه، لأن العصيان قد حصل، وإنما التوبة عزم على عدم العودة إلى الذنب، ولكن ما لصاحبها من الندم والخوف الذى بعث على العزم دل على زكاء النفس، فجعل الله جزاءه أن يمحو عنه ما سلف من الذنوب تفضلا من الله» فذلك معنى الرجاء المستفاد من «عسى».

وتكفير السيئات: غفرانها، وهو مبالغة فى كفر بمعنى ستر حيث إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. وفى قوله ﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ مجاز عقلى حيث إن النهر لا يجرى ولكن الماء هو الذى يجرى فيه، وقد أفاد هذا المجاز المبالغة فى سرعة جرى الماء وتجدده.

وقوله تعالى: ﴿ **يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه** ﴾ ثناء عليهم بانتفاء خزى الله عنهم، وفيه تعريض بأن الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله يوم القيامة، وذكر النبى ﷺ مع الذين آمنوا فيه تشريف للمؤمنين.

وفى صلة «الذين آمنوا معه» إيذان بأن سبب انتفاء الخزى عنهم هو إيمانهم. وفى هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب النبى ﷺ.

وفى إضافة «نور» إلى ضمير الذين آمنوا أفاد اختصاص النور بهم فى ذلك اليوم بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذ.

وفى قوله تعالى «نورهم يسعى» استعارة مكنية. شبه انتشار النور وامتداده، باشتداد مشى الماشى، وذلك أنه يحف بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم.

وقد خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين فى قوله ﴿ **بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته، وشعروا بأنه كرامة

لهم، ولأن الأيدى هى التى تمسك بها الأمور النفيسة، وبها بايعوا النبى ﷺ على الإيمان والنصر.

وهذا النور حقيقى يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة[١].

وجملة ﴿ **يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا** ﴾ حال من ضمير «نورهم». قال ابن عباس يقولون ذلك إذا طفىء نور المنافقين إشفاقا، وعن الحسن الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقربا إلى الله[٢]. وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه، وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة، وذلك كله أدب مع الله وتواضع له مثل ما قيل فى استغفار النبى ﷺ فى اليوم سبعين مرة.

وجملة ﴿ **إنك على كل شىء قدير** ﴾ تذييل مشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم[٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج١٣ ص ٣٧٠، ٣٧١ بتصرف.
(٢) ينظر: الكشاف ج٤ ص ١١٧.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ج١٣ ص ٣٧١.

المطلب الرابع

دراسة وتحليل الآيات التى تضمنت لفظ الظلمات فقط

استطعت من خلال تتبعى لآيات القرآن الكريم أن أجمع تسع آيات وردت فى كل آية منها كلمة الظلمات أو ما اشتق من الظلمة منها ثمانى آيات مكية وكلها جاءت فيها كلمة الظلمات جمع ظلمة، أو ما اشتق منها. وهذه الآيات هى:

أولا: الآيات المكية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[٢].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[٣].

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[٥].

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٦].

---

(١) سورة الأنعام الآية (٣٩).
(٢) سورة الأنعام الآية (٥٩).
(٣) سورة الأنعام الآية (٦٣).
(٤) سورة الأنعام الآية (٩٧).
(٥) سورة الأنبياء الآية (٨٧).
(٦) سورة النمل الآية (٦٣).

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾(١).

الآية الثامنة: قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾(٢).

ثانيا: الآيات المدنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾(٣).

هذه هى الآيات المكية والمدنية التى ذكرت فيها كلمة الظلمات والتى استطعت أن أجمعها من خلال تتبعى لآيات القرآن الكريم أثناء تلاوته. وسأحاول جهد طاقتى تحليل ودراسة هذه الآيات من خلال كتب التفسير مفصحا عن المعنى المراد من هذه الكلمة فى كل آية من هذه الآيات، وما اشتملت عليه كل آية من أسرار ولطائف بلاغية وفنيه. تكشف لنا مدى بلاغة القرآن الكريم وإعجاز أسلوبه، وروعة بيانه.

أولا: الآيات المكية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٤).

المعنى العام للآية:

تكشف هذه الآية الكريمة عن الأسباب والدوافع وراء تكذيب المكذبين

---

(١) سورة يس الآية (٣٧).
(٢) سورة الزمر الآية (٦).
(٣) سورة البقرة الآية (١٩).
(٤) سورة الأنعام الآية (٣٩).

وجحود المنكرين لآيات الله المبثوثة فى صفحات الوجود، وآياته الأخرى المسجلة فى صفحات هذا القرآن الكريم. هذه الأسباب وتلك الدوافع هى أجهزة استقبالهم المعطلة، إنهم صم لا يسمعون بكم لا يتكلمون، غارقون فى الظلمات لا يبصرون، إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثمانى المادى، فإن لهم عيونا وآذانا وأفواها، ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل، وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل فى ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك. وما يُعْرِض عنها مُعْرِض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحا لحياة الهدى، ولم يعد أهلا لذلك المستوى الراقى من الحياة.

ووراء ذلك كله مشيئة الله، المشيئة الطليقة التى قضت أن يكون هذا الخلق المسمى بالإنسان على هذا الإستعداد المزدوج للهدى والضلال، عن اختيار وحكمة، لا عن اقتضاء وإلزام، وكذلك يضل الله من يشاء، ويهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم، بمشيئته تلك، التى تعين من يجاهد، وتضل من يعاند، ولا تظلم أحداً من العباد.

إن إتجاه الإنسان إلى طلب الهدى، أو اتجاهه إلى الضلال، كلاهما ينشأ من خلقته التى فطره الله عليها بمشيئته، فهذا وذاك مخلوقٌ ابتداء بمشيئة الله، والنتائج التى تترتب على هذا الإتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك، فالمشيئة فاعلة ومطلقة، والحساب والجزاء إنما يقومان على إتجاه الإنسان الذى يملكه، وإن كان الاستعداد للإتجاه المزدوج هو فى الأصل من مشيئة الله[1].

قال ابن كثير فى تفسيره للآية: وهذا مثل أى: مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذى لا يسمع، أبكم وهو الذى لا يتكلم، وهو مع هذا فى ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه[2].

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن جـ٢ ص ١٠٨١ بتصرف.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٣١.



دراسة وتحليل:

قوله تعالى ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا** ﴾ يجوز أن تكون الواو للعطف، والمعطوف عليه جملة «إنما يستجيب الذين يسمعون». ويجوز أن تكون جملة مستأنفة، والواو استئنافية، أى عاطفة كلاما مبتدأ ناشىء عند جميع الكلام المتقدم، فإن الله لما ذكر في الآيات السابقة من مخلوقاته، وآثار قدرته ما شأنه أن يعرّف الناس بوحدانيته ويدلهم على آياته، وصدق رسوله أعقبه ببيان أن المكذبين فى ضلال مبين عن الاهتداء لذلك، وعن التأمل والتفكير فيه.

وقوله ﴿ **صم وبكم فى الظلمات** ﴾ تمثيل لحالهم فى ضلال عقائدهم، والابتعاد عن الاهتداء بحال قوم صم وبكم فى ظلام؛ فالصمم يمنعهم من تلقى هَدْىَ من يهديهم، والبَكم يمنعهم من الاسترشاد ممن يمرُّ بهم، والظلام يمنعهم من التبصر فى الطريق، أو المنفذ المخرج لهم من مأزقهم. وإنما قيل؛ فى الظلمات ولم يوصفوا بأنهم عُمى لأن الكفر الذى هم فيه والذى أصارهم إلى استمرار الضلال يشبه الظلمات، فى الحيلولة بين الداخل فيه وبين الاهتداء إلى طريق النجاة لذا جاء هذا التمثيل على أتم وجه.

وفى جمع «الظلمات» إشارة إلى ظلمة الكفر وظلمة الجهل، وظلمة العناد[١].

وقوله ﴿ **من يشأ الله يضلله** ﴾ استئناف بيانى لأنّ حالهم العجيبة تثير سؤالا؛ وهو أن يقول قائل ما بالهم لا يهتدون مع وضوح هذه الدلائل البينات. فأجيب بأن الله أضلهم فلا يهتدون، وأن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

وفيه إيجاز بالحذف حيث حذف مفعول «يشأ» لدلالة جواب الشرط عليه، أى: من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ هدايته يجعله على صراط مستقيم.

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٢١٩ بتصرف.

ومعنى إضلال الله تقديره الضلال، بأن يخلق الضّالّ بعقل قابل للضلال يُصر على ضلاله عنيد عليه. فإذا أخذ فى مبادىء الضلال -كما يعرض لكثير من الناس- فوعظه واعظ، أو خطر له فى نفسه خاطر أنه على ضلال منعه إصراره من الإقلاع عنه، فلا يزال يهوى به فى مهاوى الضلالة حتى يبلغ به إلى غاية التخلق بالضلال فلا يكف عنه... وكل هذا من تصرّف الله تعالى بالتكوين والخلق وهو تصرف القدر.. وليس هذا الإضلال بالأمر بالضلال، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا بتلقينه والحث عليه وتسهيله فإن ذلك من فعل الشيطان.

والصراط المستقيم: هو الطريق البين الذى لا اعوجاج فيه. ومعنى «على» الاستعلاء وهو استعلاء السائر على الطريق. فالكلام تمثيل لحال الذى خلقه الله فَمنَّ عليه بعقل يصغي إلى النصيحة فلا يقع فى الفساد فاتبع الدين الحق، كحال السائر فى طريق واضحة لا يتحير ولا يخطىء القصد، ومستقيمة لا تطوح به فى طول السير، فالدين يشبه الصراطَ الموصل بغير عناء، والهدى إليه شبيه الجعلَ على الصراط[1].

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2].

المعنى العام للآية الكريمة:

يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه هو المختص وحده بعلم الغيب، وسعة علمه، ثم سعة قدرته، وأن الخلق فى قبضة قدرته وسلطانه، فالأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر من الحيوانات جملة وتفصيلا، وفى

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٢٢٠ بتصرف.
(٢) سورة الأنعام الآية (٥٩).

كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته، وقد بلغت إحطاة علمه وشموله لكل شيء أنه لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والأرض التى تسقط عليها، ولا حبة صغيرة فى باطن الأرض إلا يعلم مكانها، وهل تنبت أولا؟ وكم تنبت؟ ومن يأكلها؟ ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله، ومسجل فى اللوح المحفوظ.

روى البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»(١)... وعن ابن عباس قال: خلق الله النون وهى الدواة، وخلق الألواح فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضى ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أوعمل برٍّ أو فجور وقرأ هذه الآية ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ إلى آخر الآية(٢).

قال أبو حيان: وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات: بدأ أولا بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس وهو «مفاتح الغيب» ثم ثانيا بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو «البر والبحر». ثم ثالثا بجزأين لطيفين أحدهما علوى وهو سقوط الورقة من علوّ، والثانى سفلى وهو اختفاء حبة فى بطن الأرض، فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات(٣).

كتب الشيخ سيد قطب فى تفسيره الظلال حول هذه الآية الكريمة كلاما رائعا نقتطف منه هذه الفقرات: قال رحمه الله: وهذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط الذى لا يند عنه شيء فى الزمان ولا فى المكان. وفى الأرض ولا فى السماء، فى البر ولا فى البحر، فى جوف الأرض ولا فى طبقات الجو، من حى وميت،

---

(١) ينظر تفسير القرطبى جـ٧ ص ١.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٣٧.
(٣) ينظر: البحر المحيط جـ٤ ص ١٤٦.

ويابس ورطب، إن الخيال البشرى لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب المحتومة فى الماضى والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار، مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو، ويجول فى مجاهل البر، وفى غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرتب كل رطب وكل يابس فى هذا الكون العريض، لا يند منه شىء عن علم الله المحيط، إنها جولة تدير الرءوس وتذهب العقول، جولة فى أغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول، وهى ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة فى بضع كلمات.. ألا إنه الإعجاز[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ معطوف على جملة قوله ﴿ **والله أعلم بالظالمين** ﴾ على طريقة التخلص. والمناسبة فى هذا التخلص هى الإخبار بأن الله أعلم بحالة الظالمين، فإنها غائبة عن عيان الناس، فالله أعلم بما يناسب حالهم من تعجيل الوعيد أو تأخيره، وهذا انتقال لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه ثم سعة قدرته، وأن الخلق فى قبضة قدرته. وتقديم الظرف (عنده) لإفادة الإختصاص، والعندية عندية علم واستئثار وليست عندية مكان.

والمفاتح: جمع مِفْتح وهو الآلة التى يفتح بها المغلق، وتسمى المفتاح.

والغيب ما غاب على علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى علمه، وذلك يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن، والأعراض الخفية ومواقيت الأشياء.

وفى «مفاتح الغيب» استعارة تخييلية تنبنى على مكنية بأن شبهت الأمور

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن جـ١.

المغيبة عن الناس بالمتاع النفيس الذى يدخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلا الذى بيده مفاتحها. وأثبتت لها المفاتح على سبيل التخييلية. والقرينة هى إضافة المفاتح إلى الغيب.

وقوله تعالى ﴿ **لا يعلمها إلا هو** ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، وإيذان بأن المراد هو إفادة إختصاصه تعالى بعلم الغيب فهو تأكيد على تأكيد. لأن الجملة الأولى قصر طريقه التقديم، والثانية قصر أيضا طريقه النفى والاستثناء وجملة ﴿ **ويعلم ما فى البر والبحر** ﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء فى الجلاء. أى يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها[١].

والبَّر: هو سطح الأرض الذى يمشى فيه الحيوان غير سابح، والبحر: هو الماء الكثير الذى يغمر جزءاً من الأرض سواء كان الماء ملحا أم عذبا، والعرب تسمى النهر بحراً كالفرات، ودجلة، ونهر النيل، وذكر البرَّ والبحر لقصد الإحاطة بجميع ما حوته هذه الكرة، وأفادت «ما» شمول عموم الذوات والمعانى كلها.

وجملة ﴿ **وما تسقط من ورقة** ﴾ عطف على جملة ﴿ **ويعلم ما فى البر والبحر** ﴾ لقصد زيادة التعميم فى الجزئيات الدقيقة. والمراد بالورقة ورقة من الشجر[٢].

وقوله ﴿ **ولا حبة فى ظلمات الأرض** ﴾ أى كائنة فى بطون الأرض، ﴿ **وفى ظلمات الأرض** ﴾ صفة لحبة أفادت كمال نفوذ علمه تعالى، وقوله ﴿ **ولا رطب ولا يابس** ﴾ معطوفات على حبة داخلان فى حكمها[٣].

وقوله: ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾. أى: فى اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ١٠٦.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٢٧٤ بتصرف.
(٣) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٢ ص ١٠٦.

بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيان يلحقه، تعالى على ذلك، وقيل: كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أي: اعلموا أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب[1]. فسبحان من هذا كلامه.

الآية الثالثة:

قال تعالى ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[2].

المعنى العام للآية:

يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفرة والمشركين الحائرين الواقعين فى المهامه البرية، وفى اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة من ينقذكم ويخلصكم فى أسفاركم من هذه الشدائد «تدعونه تضرعا وخفية». أى تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة، تضرعا بألسنتكم وخفية فى أنفسكم. قال ابن عباس المعنى: تدعون ربكم علانية وسرًا قائلين: «لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين». أى: لئن خلصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكوننَّ من المؤمنين الشاكرين.

والغرض: إذا خفتم الهلاك دعوتموه فإذا نجاكم كفرتموه[3]. قال القرطبى: وبخهم الله فى دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه فى حالة الرخاء غيره[4].

دراسة وتحليل:

الإستفهام فى قوله تعالى: ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر** ﴾ استفهام تقريرى، والمقصود بضمائر الخطاب المشركون دون المسلمين. يدل على ذلك قوله تعالى فى الآية التى بعدها قوله تعالى ﴿ **ثم أنتم تشركون** ﴾.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبى: جـ٧ ص٥.

(٢) سورة الأنعام الآية (٦٣).

(٣) ينظر: صفوة التفاسير جـ٣ ص ٧٥.

(٤) ينظر: تفسير القرطبى جـ٧ ص ٨.

والظلمات قيل على حقيقتها فيتعين تقدير مضاف . أى من إضرار ظلمات البر والبحر، فظلمات البرّ: ظلمة الليل التى يلتبس فيها الطريق للسائر، والتى يخشى فيها العدو للسائر وللقاطن، أى: ما يحصل فى ظلمات البرّ من الآفات، وظلمات البحر يخشى فيها الغرق والضلال والعدو.

وقيل: أطلقت الظلمات مجازا على المخاوف الحاصلة فى البر والبحر كما قال: يوم مظلم إذا حصلت فيه شدائد، ومن أمثال العرب «رأى الكواكب مُظْهِرا» أى: أظلم عليه يومه إظلاماً فى عينيه لما لاقاه من الشدائد حتى صار كأنه ليل يرى فيه الكواكب(١).

قال أبو السعود فى تفسيره لهذه الآية: قل تقريراً لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الألهية، من ينجيكم من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدهش العقول، ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم، ويوم ذو كواكب، أو من الخوف فى البر والغرق فى البحر(٢).

وقوله ﴿ **تدعونه تضرعا وخفية** ﴾ حال من الضمير المنصوب فى «ينجيكم» والتضرع: التذلل، والخفية: ضد الجهر. والمعنى: تدعونه فى الظلمات مخفين أصواتكم خشية انتباه العدو من الناس أو الوحوش.

وجملة ﴿ **لئن أنجيتنا** ﴾ فى محل نصب بقول محذوف. أى قائلين. واللام فى «لئن» الموطئة للقسم، واللام فى «لنكونن» لام جواب القسم.

والإشارة «بهذه» إلى الظلمة المشاهدة للمتكلم باعتبار ما ينشأ عنها، أو باعتبار المعنى المجازى وهو الشدة.

والشاكر: هو الذى يراعى نعمة المنعم فيحسن معاملته كلما وجد لذلك سبيلا، وقد كان العرب يرون الشكر حقًا عظيما، ويعيرون من يكفر النعمة(٣).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٢٨١ .
(٢) ينظر: تفسير أبى السعود جـ٣ ص ١٠٧ .
(٣) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٢٨٢ بتصرف .

وقـولهـم ﴿ من الشـاكـرين ﴾ أبلغ من أن يقـال : لنكونن شـاكـرين . لأن التعريف فى الشاكرين تعريف الجنس، فإخبار المتكلم عن نفسه بأنه من الشاكرين يفيد أنه واحد من الفئة التى تُعرف عند الناس بفئة الشاكرين، فيفيد أنه شاكر إفادة بطريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التى هى إثبات الشيء بإثبات ملزومه، وهى أبلغ من التصريح .

الآية الرابعة:

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

المعنى العام للآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه، تتمة لعرض المشهد الكونى الهائل الرائع مرتبطا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم، هذا المشهد الذى تحدثت عنه الآيات السابقة، «إن الله فالق الحب والنوى . . . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا . . . فالنجوم التى تتحدث عنها هذه الآية خلقها الله سبحانه وتعالى وجعل لها فوائد جليلة للبشر، فهم يهتدون بها فى متاهات البر والبحر، وتختلف وسائل الإهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المتنوعة . . . وتبقى قاعدة الإهتداء بهذه الأجرام فى ظلمات البر والبحر سواء فى ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر، ويبقى النص القرآنى الجامع يخاطب البشرية فى مدارجها الأولى بهذه الحقيقة، فتجد مصداقها فى واقع حياتها الذى تزاوله، ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار فى الأنفس والآفاق، فتجدها كذلك مصداق قوله فى واقع حياتها الذى تزاويه .

ثم إن الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها

---

(١) سورة الأنعام الآية (٩٧) .

ودورانها ومواقعها ومدارتها كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم.

وعليه فإن الإهتداء الذى يستفاد من خلق النجوم هو الإهتداء فى الظلمات الحسية الواقعية، وفى ظلمات العقل والضمير، والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسى، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى، وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم[١]. ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾.

ثم إن للنجوم فؤاد أخرى تحدث عنها القرآن قال القرطبى[٢]: «وفى النجوم منافع جمة، ذكر فى هذه الآية بعض منافعها، وهى التى ندب الشرع إلى معرفتها؛ وفى التنزيل: ﴿ **وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ** ﴾[٣]. ﴿ **وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** ﴾[٤].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم** ﴾ شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب إثر بيان نعمته تعالى فى الشمس والقمر، وقد أفاد تأخير المفعول الصريح وهو النجوم عن الجار والمجرور -لكم- الإهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر.

والمعنى أنشأها وأبدعها لأجلكم.

وقوله ﴿ **لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ أى فى ظلمات الليل فى

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٢ ص١١٥٩ بتصرف.
(٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص ٤٦.
(٣) سورة الصافات الآية (٧).
(٤) سورة الملك الآية (٥).

البر والبحر وإضافة الظلمات للبر والبحر للملابسة فإن الحاجة إلى الاهتداء بها إنما تتحقق عند ذلك، أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريق الإستعارة.

وفى جعل التفصيل لقوم يعلمون تعريضا بمن لم ينتفعوا من هذا التفصيل بأنهم قوم لا يعلمون.

والذين يعلمون هم الذين انتفعوا بدلائل الآيات، وهم الذين آمنوا بالله وحده. كما قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وفى الآية إستدلال على وحدانية الله تعالى بالألوهية وقدرته تعالى حيث صيغ بصيغة القصر بطريق تعريف المسند والمسند إليه – وهو الذى جعل لكم النجوم – لأن خلق النجوم من الله وكونها مما يهتدى بها لا ينكره المخاطبون ولكنهم لم يجروا على ما يقتضيه من إفراده بالعبادة(٢).

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

المعنى العام للآية:

فى هذه الآية الكريمة يكشف الله لنبيه ﷺ جانبا من قصة سيدنا يونس عليه السلام، فيقول سبحانه: واذكر لقومك قصة يونس الذى ابتلعه الحوت حين خرج من بلده مغاضبا لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم، ولذلك قال الله تعالى ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ومغاضبته لقومه كانت غضبا لله، وأنفة لدينه، وبغضا للكفر وأهله.

---

(١) سورة الأنعام الآية (٩٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٤ ص ٣٩٣ بتصرف.

(٣) سورة الأنبياء الآية (٨٧).

ظن يونس أن لن نضيق عليه بالعقوبة، فنادى ربه فى ظلمة الليل وهو فى بطن الحوت. قال ابن عباس: جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. قائلا: أن لا إله إلا أنت سبحانك أي تنزهت يا رب عن النقص والظلم، وقد كنت من الظالمين لنفسى: أنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عنى المحنة. وفى الحديث «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿**وذا النون**﴾ المراد به صاحب الحوت. لقب به يونس عليه السلام وذهابه مغاضبا: قيل خروجه غضبان من قومه أهل (نينوى) إذ أبوا أن يؤمنوا بما أرسل إليهم به وهم غاضبون من دعوته، فالمغاضبة مفاعلة[٢].

وقوله تعالى: ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾ يقتضى أنه خرج خروجا غير مأذون له فيه من الله، ظن أنه إذا ابتعد عن المدينة المرسل هو إليها يرسل الله غيره إليهم، ونقدر قيل إنه مضارع قدَر عليه أمراً بمعنى ضيق كقوله تعالى ﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾. أى ظن أن لن نضيق عليه تحتيم الإقامة مع القوم الذين أرسل إليهم أو تحتيم قيامه بتبليغ الرسالة، وأنه إذا خرج من ذلك المكان سقط تعلق تكليف التبليغ عنه اجتهادا منه، فعوتب بما حل به إذ كان عليه أن يستعلم ربه عما يريد فعله.

قال صاحب التحرير والتنوير: وعندى فيه تأويلان آخران وهما: أنه ظن وهو فى جوف الحوت أنّ الله غير مخلصه فى بطن الحوت لأنه رأى ذلك مستحيلا عادة، وعلى هذا يكون التعقيب بحسب الواقعة، أى ظن بعد أن ابتلعه الحوت.

وأما نداؤه ربه فذلك توبة صدرت منه عن تقصيره، أو عجلته أو خطأ اجتهاده، ولذلك قال: ﴿**إنى كنت من الظالمين**﴾ مبالغة فى اعترافه بظلم نفسه..

---

(١) أصل الحديث فى سنن أبى داود.

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ٨ ص ١٣٠.

أو أنه ظن بحسب الأسباب المعتادة أنه يهاجر من دار قومه، ولم يظن أن الله يعوقه عن ذلك إذ لم يسبق إليه وحي من الله[١].

وقوله تعالى: ﴿ **أن لا إله إلا أنت سبحانك** ﴾ قدم فيه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كنّى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير، وقدرته على كل شيء.

والظلمات: جمع ظلمة والمراد – كما أشرت في معنى الآية – ظلمة الليل، وظلمة قعر البحر وظلمة بطن الحوت. وقيل الظلمات مبالغة في شدة الظلمة. أي ظلمة شديدة متكاثفة.

الآية السادسة:

قال تعالى: ﴿ **أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[٢].

المعنى العام:

هذه الآية الكريمة برهان رابع. أي أمَّـن يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس، في البراري، والقفار، والبحار، والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار، ومن الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟. أإله مع الله يقدر على شيء من ذلك؟ تعالى الله عما يشركون. أي: تعظَّم وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

دراسة وتحليل:

قوله ﴿ **أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر** ﴾ بل لإضراب الإنتقال من نوع دلائل التصرف في أحوال عامة الناس في الآيات السابقة إلى دلائل التصرف في أحوال المسافرين منهم في البر والبحر، فإنهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة والامتنان.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ٨ ص ١٣٢.

(٢) سورة النحل الآية (٦٣).

ذكر الهداية فى ظلمات الليل فى البر والبحر. وإضافة الظلمات إلى البر والبحر على معنى (فى). والهدى فى هذه الظلمات بسير النجوم.. وهداهم أيضا بهباب الرياح. وخولهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها، وحرارتها وبردها. وإرساله الرياح هو خلق أسباب تكونها[١].

وختام الآية بقوله تعالى: ﴿ **تعالى الله عما يشركون** ﴾ تذييل أفاد تنزيه الله تعالى عن إشراكهم معه آلهة، لأن ما سبق من أدلة لا ينازعون فى أنه من تصرف الله وحده.

الآية السابعة:

قال تعالى: ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾[٢].

المعنى العام:

لما استدل الله فى الآيات السابقة بأحوال الأرض وهى المكان الكلى استدل فى هذه الآية بالليل والنهار وهو الزمان الكلى.

وقد جاء التعبير القرآنى عن هذه الظاهرة فى غاية الإبداع والإحكام. مشهد قدوم الليل، والنور يختفى والظلمة تغشى، مشهد مكرر يراه الناس فى كل بقعة فى خلال أربع وعشرين ساعة، وهو مع تكراره اليومى عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير.

فالآية الكريمة تصور النهار متلبسا بالليل، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون ولعلنا ندرك شيئا من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته فالأرض الكروية فى دورتها حول نفسها فى مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس، فإذا هذه النقطة نهار؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١٠ ص ١٧ بتصرف.
(٢) سورة يس الآية (٣٧).

عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام، فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار**﴾. السلخ: إزالة الجلد عن حيوانه، والمعنى: الليل آية لهم فى حال إزالة غشاء نور النهار عنه، فيبقى عليهم الليل، فشبه النهار بجلد الشاة ونحوها يغطى ما تحته منها كما يغطى النهار ظلمة الليل فى الصباح. وشبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن نحو الشاة فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه جلده، وليس الليل بمقصود بالتشبيه، وإنما المقصود تشبيه زوال النهار عنه، فاستتبع ذلك أن الليل سيبقى يشبه الجسم المسلوخ عنه جلده. ووجه ذلك أن الظلمة هى الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور فى الأجسام النيرة، لأن الظلمة عدم، والنور وجود، وكانت الموجودات فى ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيرة، ويُوصِل نورها إلى الإجسام التى تستقبلها كالأرض والقمر.

قال صاحب التحرير والتنوير: وإذا كانت الظلمة هى الحالة الأصلية للموجودات فليس يلزم أن تكون أصلية للأرض، لأن الظاهر أن الأرض انفصلت عن الشمس نيرة وإنما ظلمة نصف الكرة الأرضية إذا غشيها نور الشمس معتبرة كالجسم الذى غشيه جلده، فإذا أزيل النور عادت الظلمة فشبه ذلك بسلخ الجلد عن الحيوان كما قال تعالى فى مقابله فى سورة الرعد ﴿**يغشى الليل النهار**﴾[٢].

فليس فى الآية دليل على أن أصل أحوال العالم الأرضى هو الظلمة، ولكنها

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٢٩٦٨ بتصرف.
(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ١١ ص ١٨.

ساقت للناس اعتبارًا ودلالة بحالة مشاهدة لديهم ففرع عليه ﴿ **فإذا هم مظلمون** ﴾ بناء على ما هو متعارف.

والاستعارة فى الآية أصلية تبعية لأن المقصود بالتشبيه هو حالة زوال نور النهار عن الأفق فتخلفها ظلمة الليل لقوله ﴿ **فإذا هم مظلمون** ﴾ أى داخلون فى ظلام الليل.

الآية الثامنة:

قال تعالى: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾[1].

المعنى العام للآية:

هذه الآية الكريمة تتكلم عن خلق الإنسان والأنعام. ﴿ **خلقكم من نفس واحدة...** ﴾ أى خلقكم أيها الناس من نفس واحدة هى آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته وقدرته المطلقة، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية، ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل.

قال الإمام الطبرى: المعنى: ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ يعنى آدم ﴿ **ثم خلق منها زوجها** ﴾ يعنى حواء خلقها من ضلع من أضلاعه[2].

﴿ **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾ أى وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهى: الإبل والبقر والغنم والمعز، ثمانية أزواج من كل نوع ذكرًا وأنثى، وسميت أزواجا لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر، ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم أطوارًا** ﴾ فإن الإنسان يكون نطفة ثم علقة، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه،

---

(١) سورة الزمر الآية (٦).
(٢) ينظر: تفسير الطبرى جـ٢٣ ص ١٢٤.

ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر ﴿ **فى ظلمات ثلاث** ﴾ هى ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة.

يقول صاحب الظلال : فى ظلمات ثلاث، هى ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه الجنين، وظلمة البطن الذى يستقر فيه الرحم، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة، وعين الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو والقدرة على التطور، والقدرة على الارتقاء، كما قدر لها بارئها[١].

﴿ **ذلكم الله ربكم له الملك** ﴾ أى ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله رب العالمين ربكم ورب آبائكم الأولين له الملك والتصرف التام فى الإيجاد والإعدام، لا معبود بحق إلا هو، ولا رب سواه، فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

دراسة وتحليل:

قوله تعالى ﴿ **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها** ﴾ الخطاب للمشركين بدليل قوله بعده ﴿ **فأنى تصرفون** ﴾ وهو إلتفات من الغيبة إلى الخطاب، ونكتته أنه لما أخبر رسوله ﷺ عنهم بطريق الغيبة فى الآيات الأولى من السورة أقبل هنا على خطابهم ليجمع فى توجيه الاستدلال إليهم بين طريقى التعريض والتصريح.

وقد عطف قوله ﴿ **جعل منها زوجها** ﴾ بحرف (ثم) الدال على التراضى الرتبى؛ لأن مساق الآية الاستدلال على الوحدانية وإبطال التشريك بمراتبه، فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى، وخلق زوجه من نفسه دليلا آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته كذلك.

أما قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة**

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٣٠٣.

وجعل منها زوجها ﴾ فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد، فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك فى الحاكم الذى هو الكون أصلا لخلق الناس.

وقوله تعالى ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾ استدلال آخر بما خلقه الله تعالى من الأنعام. لأن الحاجة إلى الأنعام خاصة بالبشر فى قوام حياتهم.

وهذه الجملة اعتراض بين جملة ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وبين ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم** ﴾ لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وفى قوله تعالى ﴿ **وأنزل لكم** ﴾ امتنان بما فى الأنعام من المنافع للناس لما دل عليه قوله (لكم) لأن فى الأنعام مواد عظيمة لبقاء الإنسان.

والإنزال: نقل الجسم من علوّ إلى سُفل، ويطلق على تذليل الأمر الصعب، كما يقال نزلوا على حكم فلان. فإطلاق الإنزال هنا بمعنى التذليل والتمكين على نحو قوله تعالى ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أى سخرناه للناس فألهمناهم إلى معرفة طبيعته وفوائده.

ويجوز أن يكون إنزال الأنعام إنزالها الحقيقى، أى: إنزال أصولها من سفينة نوح قال تعالى: ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ فيكون الإنزال هو الإهباط قال تعالى ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك** ﴾.

قال صاحب التحرير والتنوير: هذان وجهان حسنان لإطلاق الإنزال، وهما أحسن من تأويل المفسرين إنزال الأنعام بمعنى الخلق، أى لأن خلقها بأمر التكوين ينزل من حضرة القدس إلى الملائكة[1].

والأزواج: الأنواع، والمراد أنواع الإبل والبقر والغنم والمعز.. وأطلق على النوع

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٣٢.

اسم الزوج الذى هو المثنى لغيره لأن كل نوع يتقوم كيانه من الذكر والأنثى وهما زوجان.

وقوله ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث** ﴾ استدلال بتطور خلق الإنسان على عظيم قدرة الله وحكمته ودقائق صنعه، والتعبير بصيغة المضارع لإفادة تجدد الخلق وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور العجيب استحضارا بالوجه والإجمال الحاصل للأذهان على حسب اختلاف مراتب إدراكها.

وقوله ﴿ **خلقا من بعد خلق** ﴾ أى: طورا من الخلق بعد طور آخر يخالفه. وقد بينه الحديث عن النبى ﷺ: «إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفع فيه الروح»[١].

﴿ **والظلمات الثلاث** ﴾ كما أشرنا فى معنى الآية هى ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم وظلمة المشيمة.. وفى ذكر هذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء ونفوذ قدرته إليها فى أشد ما تكون فيه من الخفاء.

وقوله تعالى ﴿ **ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون** ﴾. أفاد اسم الإشارة التنبيه على أن صاحب تلك الصفات حقيق بما يرد بعده.

والإخبار عن اسم الإشارة بلفظ الجلالة لإحضار المسمى فى الأذهان باسم مختص زيادة فى البيان؛ لأن حال المخاطبين نزل منزلة حال من لم يعلم أن فاعل تلك الأفعال العظيمة هو الله تعالى.

وقوله ﴿ **ربكم** ﴾ صفة لاسم الجلالة تذكرهم بنعمة الإيجاد والإمداد، وتوطئة للتسجيل عليهم بكفران نعمته الآتى فى قوله ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٣٣.

وفى قوله ﴿له الملك﴾ قصر طريقه التقديم، أى الملك لله لا لغيره وجملة ﴿لا إله إلا هو﴾ بيان لجملة الحصر فى قوله ﴿له الملك﴾ وقوله ﴿فأنى تصرفون﴾ استفهام إنكارى عن انصرافهم عن توحيد الله تعالى بعد ما لاحت لهم فى الأفق هذه الأدلة وغيرها على توحيده سبحانه وجعلهم مصروفين عن التوحيد، ولم يذكر لهم صارفا، فجاء فى ذلك بالفعل المبنى للمجهول نعيا عليهم بأنهم كالمقودين إلى الكفر غير المستقلين بأمورهم يصرفهم الصارفون من أئمة الكفر والشياطين، وفى ذلك إلهاب لأنفسهم ليكفوا عن امتثال أئمتهم، عسى أن ينظروا بأنفسهم فى دلائل الوحدانية المذكورة لهم.

والمعنى كما يقول صاحب التحرير والتنوير: فكيف يصرفكم صارف عن توحيده بعدما علمتم من الدلائل الآنفة[1].

ثانيا: الآيات المدنية:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[2].

المعنى العام:

هذا مشهد آخر للمنافقين يصور حالهم وما فى نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة بهيئة قوم أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء مصحوب بالبرق والرعد والصواعق يضعون رؤوس أصابعهم فى آذانهم لدفع خطر الصواعق، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم. خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة، والله محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته، كما لا يفلت من أحاط به الأعداء من كل جانب.

يقول صاحب الظلال: إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١١ ص ٣٣٧.

(٢) سورة البقرة الآية (١٩).

بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء، صيب من السماء هاطل غزير ﴿ **فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت** ﴾ . . . إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام . . إن هذه الحركة في المشهد لترسم - عن طريق التأثر الإيحائي - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون . . بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين . . . فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية، ويجسم صورة شعورية، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس[١].

دراسة وتحليل:

قوله تعالى: ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق** ﴾ تشبيه آخر لحال المنافقين روعي فيه أوصاف أخرى. حيث شبه حال المنافقين المختلطة بين جواذب ودوافع حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار.

قال صاحب التحرير والتنوير: والتمثيل هنا لحال المنافقين حين حضورهم مجلس رسول الله ﷺ وسماعهم القرآن وما فيه من آي الوعيد لأمثالهم وآي البشارة . . . شبهت حال المنافقين بحال قوم سائرين في ليل بأرض قوم أصابها الغيث وكان أهلها كانِّين في مساكنهم كما عُلم ذلك من قوله ﴿ **كلما أضاء لهم مشوا فيه** ﴾ فذلك الغيث نفع أهل الأرض ولم يصبهم مما اتصل به من الرعد والصواعق ضر، ولم ينفع المارين بها وأضرَّ بهم ما اتصل به من الظلمات والرعد

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن جـ١ ص ٤٦.

والبرق، فالصيب مستعار للقرآن وهدى الإسلام. والظلمات مستعار لما يعترى الكافرين من الوحشة عند سماعه كما تعترى السائر فى الليل وحشة الغيم لأنه يحجب عنه ضوء النجوم والقمر. والرعد لقوارع القرآن وزواجره، والبرق لظهور أنوار هديه من خلال الزواجر، فظهر أن هذا المركب التمثيلى صالح لاعتبارات تفريق التشبيه وهو أعلى التمثيل[١].

وقوله ﴿ **يجعلون أصابعهم فى آذنهم من الصواعق** ﴾ من المجاز المرسل من أطلاق الكل وإرادة الجزء حيث أطلق الأصابع وأراد رؤوسها، لأن دخول الأصبع كلها فى الأذن لا يمكن. وفيه مبالغة فى فرط دهشتهم، وكمال حيرتهم، لدرجة أنهم لشدة خوفهم وفزعهم لو استطاعوا أن يدخلوا أصابعهم كلها فى آذانهم لفعلوا ذلك.

والصواعق: الرعد الشديد معه قطعة من نار لا تمر بشىء إلا أتت عليه، لها صوت شديد.

وقوله ﴿ **حذر الموت** ﴾ مفعول لأجله وهو هنا علة وغاية معا، والمعنى: يخشون الموت من شدة صوت هذه الصواعق حيث إنهم لا يطيقون سماع قصفها.

وفى قوله تعالى: ﴿ **والله محيط بالكافرين** ﴾ إستعارة للقدرة الكاملة حيث شبهت القدرة التى لا يفوتها المقدور بإحاطة المحيط بالمحاط على طريقة الإستعارة التبعية أو التمثيلية – حيث استعمل هذا الخبر فى لازمه، وهو أنه لا يفلتهم وأنه يجازيهم على سوء صنعهم[٢].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣١٦، ٣١٧.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ١ ص ٣٢٢ بتصرف.

المبحث الرابع

الأبعاد والمضامين التربوية والمعرفية التى يمكن استنتاجها من خلال هذه الدراسة

بعد العرض والدراسة والتحليل لهذه الآيات الكريمة التى وردت فيها هذه الألفاظ – الظلمات، والنور، والإخراج من الظلمات إلى النور – وكشف النقاب عن دلالات وإيحاءات هذه الألفاظ وفق ما يتلاءم ويتناسب مع كل موضع نستطيع أن نقف على عدة أبعاد ومضامين تربوية ومعرفية لهذه الآيات الكريمة تتعلق بالناس جميعا بصفة عامة، وبالفرد المسلم والجماعة المسلمة بصفة خاصة.

هذه الأبعاد والمضامين التربوية والمعرفية هى:-

١– البعد المعرفى.

٢– البعد العقد.

٣– البعد السلوكى.

هذا وقد جاء النسق القرآنى كما رأينا فى غاية الإبداع، وقمة البلاغة وقبل الحديث عن هذه الأبعاد ومدى أهميتها بالنسبة للفرد والمجتمع أود أن أشير إلى فلسفة الأسلوب القرآنى وخصائصه – كما رأينا – فى بيان هذه الأبعاد.

فلسفة الأسلوب القرآنى فى الآيات السابقة:

المتأمل فى الآيات السابقة وخاصة الآيات التى تكلمت عن الإخراج من الظلمات إلى النور يجد أن لفظ الإخراج هكذا بالمصدر لم يرد، وإنما ورد منه الفعل يخرج وتخرج مضارعًا، وأخرج فعل أمر، وهى صيغ فيها معنى التعدية، ففى اللفظ إذن دلالة الإخراج لا دلالة الخروج، أى أن مجرد التعبير بالإخراج، فيه دلالة على أن الخروج من الظلمات إلى النور لم يكن من ذات المخرج، بل هو مفتقر فى هذا الخروج إلى من يخرجه.

ومن هنا تظهر مكانة الدعوة إلى الله تعالى، فالناس حين يكونون فى الظلمات لا يتصور منهم القدرة على الخروج منها وهم مفتقدون للنور، فهم فى حاجة إلى سراج منير، ينبعث النور منه إليهم، ينير لهم الطريق، ويتبعون خطاه حتى يخرج بهم من تلك الظلمات، ويصلهم بأصل النور عن طريق الكتاب الذى هو نور ووسيلة إلى النور، فحينئذ ينالون حظهم من النور، ويسعون إلى إخراج غيرهم أيضا.

ثم إن هذا الإخراج يكون من الظلمات إلى النور، وقد حكى الرازى إجماع المفسرين على أن المراد من الظلمات والنور فى هذه الآيات الكفر والإيمان[١].

وقال الآلوسى: «اقتصر الواقدى فى تفسير الظلمات والنور على ذكر الكفر والإيمان وحمل كل ما فى القرآن على ذلك سوى ما فى الأنعام من قوله تعالى: ﴿**وجعل الظلمات والنور**﴾ فإن المراد بهما هناك الليل والنهار، والأولى أن يحمل الظلمات على المعنى الذى يعم سائر أنواعها، ويحمل النور أيضا على ما يعم سائر أنواعه، ويجعل فى مقابلة كل ظلمة مخرج منها نور مخرج إليه»[٢].

وكان الراغب الأصفهانى أكثر دقة وتفصيلا فى هذا المقام حين ذهب إلى أن «الظلمات» يعبر بها عن الجهل والشرك والفسق، كما يعبر بالنور عن أضدادها[٣].

والظاهر أن الذين قالوا بالقول الأول نظروا إلى بؤرة الظلمات، وهى أحلكها، دون الالتفات إلى مدخلها الذى هو الجهل، ولا إلى نتيجتها التى هى الفسق، ومن ثَم يمكن اعتماد تعريف الراغب على أنه تفصيل وتقسيم وتدقيق، فهو فى هذا التعريف المركز ينبه إلى فائدتين:

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب جـ٧ ص ٢١. وانظر: الإتقان للسيوطى جـ١ ص ١٤٤.
(٢) ينظر: روح المعانى للالوسى جـ٣ ص ٢٣.
(٣) ينظر: مفردات القرآن / ظلم.

الأولى: أن التعبير بالنور عن الأضداد -هكذا بالجمع- يومىء إلى تعدد الأنوار على مستوى التفصيل. لكن لما لم يستعمل اللفظ فى القرآن إلا مفرداً فقد دل ذلك على أن مصدر النور واحد وأن مصدر الظلمات متعدد.

وهذه المسألة فيها بعض الإشكال: فقد ذهب الزركشى إلى أن الجمع والإفراد فى الظلمات والنور شبيه بجمع سبل الباطل وإفراد سبيل الحق كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[١].

قال: والجواب فى ذلك كله أن طريق الحق واحد، وأما الباطل فطرقه متشعبة متعددة، ولما كان الظلم بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الجنة بل هما، أفرد النور وجمع الظلمات، ولهذا وحد الولى فقال ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٢] لأنه الواحد الأحد، وجمع أولياء الكفار لتعددهم، وجمع الظلمات، وهى طرق الضلال والغى لكثرتها واختلافها، ووحد النور، وهو دين الحق[٣].

وهذا الذى استدلّ به الإمام الزركشى -رحمه الله تعالى- لا يحصل به الثلج فى هذه المسألة، لأن إفاد سبيل الحق، وجمع سبل الباطل ليس على إطلاقه، بل ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٤] وقوله تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾[٥].

قال الطاهر بن عاشور: «وإنما جمع الظلمات، وأفرد النور اتباعا للإستعمال، لأن لفظ الظلمات بالجمع أخف، ولفظ النور بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ الظلمات فى القرآن إلا جمعا، ولم يرد لفظ النور إلا فردا، وهما معادالان على الجنس، والتعريف الجنسى يستوى فيه المفرد والجمع[٦].

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٣). (٢) سورة البقرة الآية (٢٥٧).
(٣) ينظر: البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ٤ ص ١٢٠، ١٢٩.
(٤) سورة العنكبوت الآية (٦٩). (٥) سورة المائدة الآيتان (١٥، ١٦).
(٦) ينظر: التحرير والتنوير جـ٧ ص ١٢٧.

وقد لا نتفق مع الطاهر (رحمه الله تعالى) -أيضا- فى حصر علة الإفراد والجمع فى عنصر الخفة، لأن خفة اللفظ القرآنى لا تتعارض مع خصوصية دلالة كل لفظ وكل صيغة فى القرآن الكريم.

ولا نشك فى أن فى جمع «الظلمات» معنى خاصا، كما أن فى إفراد النور معنى خاصا كذلك، وصيغة الجمع لا تكون بالضرور دليلا على الذم مطلقا بالنسبة لسائر الألفاظ، كالسبل مثلا.

والحق أن هذه المسألة فى حاجة إلى تفرد بالبحث، ويكفينا منها الآن أن نستشعر التنبيه على الأصل الجامع مقابل الأشتات المتفرقة، وهذا ظاهر فى قوله تعالى ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[١] فالله سبحانه هو الولى الحق الواحد، وأما غيره من الشركاء المزعومين فهم أعداد وأنواع وأشكال.

وهذا يعنى أن الإنسان بالظلمات يتوزع فى اتجاهات مختلفة ومتضاربة، وأن ما يقابلها من أنوار آيلة إلى نور واحد جامع يهدى إلى صراط مستقيم. فهذا هو مجمل ما يمكن قوله فى هذا المقام بالنسبة لجمع الظلمات وإفراد النور.

وأما الأمر الثانى الذى يثيره تعريف الراغب فهو استيعابه لأبعاد الإنسان المعرفية والعقدية والسلوكية، وهو استيعاب ينسجم مع مقاصد القرآن وقواعده.

إن نص الراغب على الجهل باعتباره ظلمة، وما يقابله من نور العلم دليل على اعتبار العلم قبل الإيمان، ولذلك خصص الإمام البخارى بابا فى صحيحه سماه: «باب العلم قبل القول والعمل» لقوله تعالى «فاعلم أنه لا إله إلا الله» فبدأ بالعلم[٢].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٧).

(٢) كتاب العلم من صحيح البخارى.

وحكى الله تعالى عن موسى عليه السلام مخاطبا قومه الذين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾(٢).

ثم إن تقسيم الراغب الظلمات إلى تلك العناصر الثلاثة يومىء إلى تلازمها، ومن ثم فالعلاقة بين العلم والإيمان والعمل قوية جدًا، مما يدل على أن صيانة الإيمان لا تقل شأنا عن الدخول فيه ابتداء، وهذا مبنى على قاعدة كونية، وسُنة إلاهية فى الخلق، فإن أى شىء وَجد ثم خلا عن الصيانة والرعاية والتعهد يتأثر بعوامل الزمن قبل أوانه، ثم يندثر بعد ذلك، ويؤول إلى زوال.

والصيانة للإيمان تكون بالاستزادة من العلم، والارتقاء فى الطاعة ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٣).

وهكذا يمكن الخلوص – انطلاقا من فلسفة الأسلوب القرآنى فى آيات الإخراج من الظلمات إلى النور، وتعريف كل من الظلمات والنور. إلى تلك الأبعاد الثلاثة: المعرفى والعقدى، والسلوكى. التى أشرت إليها.

ونود –قبل تفصيل القول فى هذه الأبعاد– أن نقف قليلا عند لفظ التربية في علاقته بهذه الأبعاد.

فالملاحظ –كما سبقت الإشارة– أن أغلب الآيات فى هذا الموضوع مدنية، وأن الخطاب فيه ينص على الذين آمنوا، ومعنى هذا أن الإخراج من الظلمات إلى النور، عملية لا تقف عند مجرد الانتقال من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، بل هى عملية تربوية مستمرة ومجاهدة متواصلة على عدة جبهات، سعيا إلى التخلص التام من كل الظلمات سواء أكانت كفراً أم جهلا أم فسقا.

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٣٨).
(٢) سورة الزمر الآية (٦٤).
(٣) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

وبعد . . فإلى الأبعاد التربوية الثلاث :

أولا: البعد المعرفى

إن المدخل الطبيعى إلى الإسلام هو العلم، ولذلك يقابل المؤرخون بين عصر الجاهلية وعصر الإسلام، وهم يستندون أساسا إلى القرآن الكريم فى هذا التصنيف، وهو تصنيف يتجلى لمن يقارن بين العصرين فتتبين له النقلة المعرفية الضخمة التى شهدتها الإنسانية فى وقت وجيز أبهر عقول المؤرخين وعلماء الحضارات[1] .

والقرآن الكريم حين نظر إلى الجهل، نظر إليه باعتباره ظلمة؛ لأن الجهل فى حقيقته «معنى مقتضى للأفعال الجارية على غير النظام»[2] . ومعنى هذا أن صاحبه يتخبط فى السبل المتفرقة تائها عن الصراط المستقيم، فهو لا يهتدى إلى الحق فى تعامله مع الأفكار والأشخاص والأشياء .

ثم إن الجهل -فى بعض معانيه أيضا- «اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه»[3] فصاحبه مفتقد للنور الذى إذا سلطه على الأمور بانت كما هى فى حقيقتها :

ويتحدث عبد الله بن عباس رضى الله عنه عن العرب قبل نور الإسلام فيقول : إذا سرك أن تعرف جهل العرب فأقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[4] .

فإذا رجعت فعلا إلى هذه السورة فسوف تلاحظ عبارة «بغير علم» تتكرر فى نعت مجمل تصوراتهم وتصرفاتهم وسوف تجد أيضا جملة من الألفاظ التى تقوى هذا المعنى مثل وصفهم بالسفه والخرص واتباع الظن والهوى والضلال .

---

(١) ينظر : حول تشكيل العقل المسلم د/ عماد الدين خليل ص ٣٧ - ٧٢ .

(٢) ينظر : مفردات القرآن مادة : جهل .

(٣) ينظر : المرجع السابق .

(٤) سورة الأنعام الآية (١٤٠) .

وهذه التصورات والتصرفات لا تستند إلى أى أساس من العلم سواء أكان علمًا من الوحى أم كان دليلا من العقل: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾(١).

إن الإسلام جعل من أهم وظائفه إخراج الناس من ظلمة الجهل تلك، وفتح الباب أمام العقل الإنسانى لكى يبدأ رحلة العلم والنور، وهى رحلة لا تنتهى -أفقيا ولا عموديًا- عند حد، فالإسلام فى بعده المعرفى نور متجدد ومتدفق يتتبع بالتدبير سائر الظلمات بمختلف أنواعها، ويطاردها فى مواقعها وهى كثيرة ومتجددة أيضا، وانتشار النور أو الظلمات إنما هو بحسب الإنسان فى علاقته بمصدر النور، وسوف نرى بجلاء من خلال نصوص هذا الموضوع كيف ينتصب القرآن الكريم فى صلب بنيه عملية الإخراج من الظلمات إلى النور، والمفهوم الذى تقوم به العلاقة بين الإنسان والكتاب هو الإتباع، وهو المفهوم نفسه الذى تقوم به العلاقة بين الإنسان والهوى أو غيره.

قال تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢).

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٣)، وقوله سبحانه: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(٤). وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾(٥).

ومن فوائد الكلام أن الإنسان بقدر ما فيه من الاتباع يكون نصيبه من النور أو الظلمة، ومما يفهم من علاقة العلم بالاتباع أن هناك ارتباطًا شديداً بين التحقق بالعلم واستشعار الهداية، و ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٨).
(٢) سورة الأنعام الآية (١٥٥).
(٣) سورة الأعراف الآية (١٥٧).
(٤) سورة الروم الآية (٢٩).
(٥) سورة القصص الآية (٥٠).
(٦) سورة فاطر الآية (٢٨).

فهذه هي ثمرة العلم، والرسول ﷺ كان في دعائه يسأل الله أولا الإنتفاع بما علمه، ثم يسأله ثالثا الاستزادة من العلم مطلقًا فكان ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علمًا، والحمد لله على كل حال»[١].

إن هذا التفاعل المتوالد المستمر بين العلم نظريةً، والعلم سلوكا هو الذي يفضي بالمسلم إلى كشف السنن الإلاهية في الخلق بحيث غالبا ما يكون مصيبًا، لأنه على نور من ربه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[٣].

وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها ورعوا وسقوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه ما بعثني الله به، ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٤].

إن هذا الصنف من العلوم هو الأساسي التصوري الذي ينبغي أن تنبني عليه سائر فروع العلم والمعرفة، وهو المنطلق الذي تتضح به المصالح والمقاصد، فتسعى تلك المعارف إلى تحقيقها، وهكذا يمتد نور علم الوحي إليها فيوجهها إلى التي هي أقوم، ولا شك أن الإعراض عن هذا العلم هو السبب الرئيسي وراء النتائج المدمرة للعلوم المادية في الحضارة الغربية المعاصرة، فالتلوث يلتهم الحياة يوما بعد يوم،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه. المقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل به ج ٢٥١.

(٢) سورة الحديد الآية (٢٨).

(٣) سورة الزمر الآية (٢٢).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب العلم ص ٦٧.

والأسلحة النووية والكيماوية والجرثومية تقتل العباد وتفسد البلاد، والاستنزاف الجشع للثروات يهدد باختلال الموارد.. إلى آخره يقول الدكتور الشاهد البوشيخي: «فعلم الغيب أى الوحى إطار علوم الشهادة أي علوم الكون والحياة والإنسان، فإذا تحركت هذه داخل الإطار أثمرت ما خلق له الإنسان مما ينفع الناس ويمكث فى الأرض من عبادة الله جل وعلا، وإلا كانت جهلا مركبا ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[1].

والعلم بالله جل جلاله هو رأس العلم من فاته فقد فاته كل شىء، ذلك بأن صور الأشياء – أسبابا وموانع، وأحجاما ومواقع وأهدافا ووسائل – لا تسقيم إلا من بعد العلم بهذا العلم، وهو فى التحصيل سابق لكل علم، وفى الترتيب منطلق لكل عمل، وغاية وهدف من كل علم»[2].

وهذا موضوع كبير جدا والقصد هنا التأكيد على قضية العلم، والمسلم مطالب بأن يتعهد نفسه بإخراجها من ظلمة الجهل إلى نور العلم من خلال اجتهاد مستمر فى طلبه، ولا يقف عند حد ما دام فى هذه الحياة.

ثانيا: البعد العقدى

يعبر العلماء عن هذه الظلمة –كما رأينا– تارة بالكفر، وتارة بالشرك، وبينهما فرق، وهما على درجات.

قال الراغب: «أعظم الكفر جحود الوحدانية، أو الشريعة أو النبوة، والكفران فى جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر فى الدين أكثر»[3].

وقال أيضا: شرك الإنسان فى الدين ضربان: أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم كفر.

---

(١) سورة الزمر الآية (٦٤).

(٢) ورقات فى المسألة العلمية / ضمن مجلة الهدى عدد ٢٣ ص ٣١.

(٣) مفردات القرآن / كفر.

والثانى : الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه فى بعض الأمور»[١].

والقرآن الكريم قد صور الصلة بين الكفر والظلمات بشكل جلى . وقد رأينا ذلك فى الآيات السابقة منها قوله تعالىٰ ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[٣].

وقوله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾[٤].

فهذه الآيات تضعنا أمام ثلاثة مفاهيم فى سياق الحديث عن الظلمات، وهى : الكفر، والتكذيب، والشرك، وهذه المفاهيم تشترك جميعا فى دلالتها العقدية .

والخروج من هذه الظلمات يكون بالانتقال إلى أضدادها من أنوار الإيمان والتصديق والإخلاص .

---

(١) مفردات القرآن / شرك .
(٢) سورة الأنعام الآية (١٢٢) .
(٣) سورة النور الآية (٣٩) .
(٤) سورة الأنعام الآيتان (٣٩، ٤١) .

وهذه الأنوار درجات وطبقات. والدرجة الأولى هى التى تفصل بين الملتين: ملة الإسلام، وملة غيره من الأديان، فالكفر كله ملة واحدة، ثم تأتى بعد ذلك درجات أخرى، ومن هنا تحدث العلماء عن كفر دون كفر، وعن الشرك الأكبر، والشرك الأصغر. وتحدثوا عن زيادة الإيمان ونقصانه، وهم يقصدون أن هناك درجات أخرى دون تلك الدرجة الفاصلة، لكنها لما كانت درجات فى الكفر فقد نالت نصيبها من الظلمات.

قال ابن بطال: «التفاوت فى التصديق على قدر العلم والجهل: فمن قلّ علمه كان تصديقه -مثلا- بمقدار ذرة، والذى فوقه فى العلم تصديقه بمقدار برة أو شعيرة إلا أن أصل التصديق الحاصل فى قلب كل أحد منهم لا يجوز عليه النقصان، ويجوز عليه الزيادة بزيادة العلم والمعاينة[1].

وقال الطاهر بن عاشور: «إن الله يزيد الذين اهتدوا هدى لأن اتباعهم للإسلام تيسير لطرق اليقين فهم يزدادون توغلا فيها يوما فيوما، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام فإن اختيارهم ذلك دلّ على ختم ضرب على عقولهم فلم يهتدوا فهم يزدادون فى الضلال يوما فيوما، ولأجل هذا الإزدياد المتجدد فى الأمرين، وقع التعبير بالمضارع فى «يخرجهم» و «يخرجونهم»[2].

وهذا يعنى أن مقاومة الظلمات بالنور لا تنتهى بمجرد الدخول فى ملة الإسلام من خلال الإقرار بالشهادتين، فبعد التحصيل تأتى الصيانة والتحصين والارتقاء بالعلم والمعرفة والممارسة، ومما يومىء إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾[3].

وقد ذكر الإمام الرازى فى الآية وجوها. ومن أحسنها أن المراد: يا أيها الذين

---

(١) ينظر: فتح البارى جـ١ ص ١٠٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٣ ص ٣٠.

(٣) سورة النساء الآية (١٣٦).

آمنوا داوموا على الإيمان وأثبتوا عليه، وحاصله يرجع إلى معنى يا أيها الذين آمنوا في الماضي والحاضر آمنوا في المستقبل.

ومن هذه الوجوه أيضا: يا أيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنوا على سبيل الاستدلال، ومنها يا أيها الذين آمنوا بحسب الاستدلالات الجملية آمنوا بحسب الدلائل التفصيلية(١).

وأما الشرك الأصغر فلا شك في ظلمته، فهو يحبط الأعمال، وموقع في الحرمان من توفيق الله تعالى، والخروج منه إلى نور الإخلاص - الذي هو في حقيقته التبري عن كل ما دون الله تعالى - يحتاج إلى مجاهدة شديدة وإلى يقظة مستمرة، لأنه شرك خفي يسري إلى الأعمال كدبيب النمل(٢).

ثالثا: البعد السلوكي

يأتي هذا البعد المرتبط بالعمل والسلوك بعد البعد العقد الذي هو في الترتيب بعد البعد المعرفي، فهي أبعاد يفضي بعضها إلى بعض، ويؤثر بعضها في بعض، وتتفاعل فيما بينها لتنتج الخير والفلاح، فالعلم الصحيح يسوق إلى الإيمان في أعمق صوره وهو الخشية ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾(٣).

والإيمان القوي دافع إلى الطاعة، والطاعة تورث العلم النافع، وتزيد في الإيمان ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾(٤).

وقد عبر الراغب رحمه الله تعالى عن الظلم في هذا البعد السلوكي بكلمة -الفسق- فنبه بذلك على إمكانية وقوعه من المسلم فيكون حينئذ واقعا في ظلمة يحتاج إلى الخروج منها إلى ضدها من نور الطاعة والانقياد.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: جـ١١ ص ٧٥.
(٢) سورة النمل الآية ٢٧.
(٣) سورة فاطر الآية ٢٨.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

قال الراغب: فسق فلان: خرج عن حجر الشرع وذلك من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشره. وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقربه ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيل للكافر الأصلى فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة[1].

وهذا يعنى أن واجب التربية يقتضى المعالجة المستمرة لهذا البعد أيضا. وذلك لأن المسلم بطبيعته البشرية معرض للذنوب، والشيطان يزاحمه بالوسوسة والنفس من طبيعتها المنازعة.

فإذا استثنينا الحد الأكبر لهذه الظلمات، فإن الذين آمنوا - أو بعضهم - قد يبقى فيهم قسط من الجهل أو الفسق، أو الشرك[2]، وهو ظلمات أيضا، فيكونون فى حاجة إلى إخراج منه إلى نور العلم والطاعة والإخلاص.

ومما يقوى هذا المعنى مفهوم التطهير، ومن ذلك قوله تعالى بعد الأمر بالوضوء والاغتسال: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[3].

فتمام النعمة بعد الإيمان هو تبيين هذه الشرائع والهداية إليها، فبها تتحقق الأعمال الصالحة التى تنافس الأعمال الفاسدة وتتعقبها وتطردها، وتطهر الإنسان من أرجاسها.

وهذا هو روح التربية الإسلامية الذى يجعلها دائمة المتابعة لسير عملية التطهير والإخراج من الظلمات إلى النور، فالإخراج مستمر سعيا إلى النور التام، ولذلك يدعو المؤمنون يوم القيامة: ﴿**رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ**

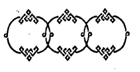
---

(١) ينظر: مفردات القرآن: مادة (فسق).

(٢) شرك الإنسان فى الدين ضربان أحدهما الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى. والثانى الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله معه فى بعض الأمور وهو الرياء ينظر: المفردات (شرك).

(٣) سورة المائدة الآية (٦).

شَيْءٍ قَـــدِيرٌ ﴾(١). ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾(٢).



(١) سورة التحريم الآية (٨).
(٢) سورة الحديد الآيتان (١٢، ١٣).

الخاتمـــة

حقا إنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين، بلسان عربى مبين على رسوله الكريم، لا يدانيه كلام لا من قريب ولا من بعيد فى فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته.

وبعـــد

فإنه بعد هذه الجولة السريعة والإطلالة الخاطفة على الآيات التى ورد فيها لفظى الظلمات والنور بأقسامها الأربعة، ومن خلال دراسة وتحليل هذه الآيات نستطيع أن نقف على عدة نتائج أهمها:

أن كلمة الظلمات لم تأت فى القرآن الكريم إلا جمعا، ولفظ النور لم يأت إلا مفردا وقد أشرت إلى ما ذكره العلماء فى علة ذلك.

أن لفظ الظلمات قد يراد به معناه الحقيقى وهو ضد النور، وقد يستعمل فى معانى أخرى تفهم من السياق وفحوى الأسلوب كالكفر والفسق، والكذب، والنفاق، وعدم الإهتداء إلى الطريق السوى، وما يؤدى إلى التخبط وعدم الوصول إلى باب النجاة.

أن لفظ النور قد يراد به معناه الحقيقى وهو ضد الظلمة، وقد يطلق على مسميات أخرى فقد يطلق على الإسلام والإيمان، والهدى، والصراط المستقيم، والله تعالى من أسمائه النور، والقرآن من أسمائه النور، وسيدنا محمد ﷺ منير، وقد فسر قوله تعالى ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**﴾ -كما رأينا- أنه محمد ﷺ[1].

أن هذه الآيات الكريمة -وخاصة آيات الإخراج من الظلمات إلى النور- بمثابة دعوة عامة للعالم أجمع إلى نبذ طريق الضلال وكل ما يؤدى إليه واتباع طريق

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب. جـ١١ ص ١٩٤.

الهداية والنور ولا يتحقق ذلك إلا باتباع رسوله ﷺ والدخول فى دينه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾.

وإن كان لى من كلمة أخيرة فى هذا البحث فإنى أرى أن العالم اليوم يتخبط فى الظلمات وليس بخارج منها إلا بنور الوحى المنير.

وإنى أذكر فى هذا السياق الخطأ الفادح الذى وقع فيه الفكر الأوربى حين تصور أن الطريق إلى الأنوار ينبغى أن يبدأ من التخلى عن النص الدينى -مطلقا- والتحرر من سلطته وإعطاء العقل كامل حريته حتى يأخذ المبادرة فى جميع المجالات الإنسانية والكونية، وقد أطلقوا على القرن الثامن الذى بدأت فيه بعض الثورات العلمية والفكرية - «عصر الأنوار» ثم تبلور هذا التوجه فى مذهبين عالميين: المذهب المادى الجدلى، والمذهب العلمانى ولئن كان المذهب الأول مسرفا فى القطيعة مع الدين إلى درجة الإلحاد الذى تمارسه الدولة، فإن المذهب الثانى: كان يهدف إلى تحجيم مفهوم الدين وتضييقه ليصح مسألة شخصية لا امتداد لها فى واقع الحياة.

والظاهر أن تعريف العلمانية بأنها فصل الدين عن الحياة أدق من تعريفها بأنها فصل الدين عن الدولة.

هكذا تصور الفكر الأوربى الطريق إلى الأنوار، ولكن الحقيقة هى أنه مجرد تحول من ظلمات دين دخله الهوى والتبديل إلى ظلمات الهوى بدون دين.

وإذا كان العقل الأوربى قد حقق تقدما مهمًا فى العلوم المادية فإنه ما زال يخلط ويخبط فى المجال الإنسانى، بل إنه فقد الزمام حتى بالنسبة لتلك العلوم المادية فالآلة هى التى تقود الإنسان اليوم.

وقد نال العالم الإسلامى حظه من هذا السراب حين طفقت النخبة المتغربة تبشر بالفتح الأوربى، ورأى أغلبية المتغربين أن الوسيلة الشمولية لإعادة بناء المجتمع العربى تتمثل قبل كل شىء فى تبنى التعليم الأوربى(١).

---

(١) الإسلام والمسيحية -أليكس جرافسكى- ترجمة د/ خلف محمد الجراد ص ٢٠٣.

ولكن علينا أن ندرك أن مـاديتنا وأخـلاقنا فى ذات الوطن والعـقـيـدة، ولا مناص لنا منهـمـا فهـمـا المسكن والروح والأصل، ولا مـانع أن نأخـذ من الثـقـافـات والعـادات الأخـرى مـا يتناسب ولا يتعـارض مع مـبادئنا وقـيـمنا وأخـلاقـيـاتنا التى نسـتـمـدها من روح الإسـلام وتعـاليـمـه. وإذا أراد العـالم أن يخـرج مما يتـخـبط فـيـه ويسود السلام ويعم الخير فلا مخرج له إلا باتباع نور الوحى، فهو الذى أخرجه أول مرة وقادر على إخراجه اليوم أيضا.

لقد أخرج رسول الله ﷺ الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى، فقام بالوظيفة التى كلف بها خير قيام، وأدى الأمانة إلى الأمة التى كلفت هى الأخرى بالشهادة على الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولا يغتر المغترون والمزايدون بالحضارات الزائفة البراقة، فكل شىء ما خلا الله باطل، وكل بناء نسجه العنكبوت واهن، فالحضارة حضارة نفوس وأرواح وعقائد صحيحة قبل الاعتبارات المادية والاقتصادية، فهذه تخربها عوامل الحت والصدأ ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾(١).

وقد ضرب الله الأمثال الكثيرة فى كتابه لأقوام سادت وبادت قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾(٢).

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتـــور
رجب محمد سالم [illegible]
أستاذ البلاغة والنقد [illegible]
جامعة الأزهر

(١) سورة الرعد الآية (١٧).

(٢) سورة إبراهيم الآية (٩).

المصـــادر والمراجـــع

١- القرآن الكريم .

٢- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى .

٣- الإسلام والمسيحية آلكس جرفكس ترجمة د . خلف عبد الجواد .

٤- الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح الشيخ عبد المتعال .

٥- البرهان فى علوم القرآن للزركشى .

٦- البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع للدكتور فضل حسن عباس دار الفرقان للنشر والتوزيع .

٧- البلاغة العربية فى ثوبها الجديد .

٨- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

٩- التسهيل لعلوم التنزيل .

١٠- تفسير القرآن العظيم لابن كثير مكتبة التراث الإسلامى .

١١- تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن - دار الشعب .

١٢- تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ط . الأولى .

١٣- تفسير البحر المحيط .

١٤- التفسير الواضح للدكتور أحمد محمود حجازى .

١٥- تفسير البيضاوى .

١٦- تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول .

١٧- تهذيب الصحاح .

١٨- الحكم لابن عطاء الله السكندرى .

١٩- حول تشكيل العقل المسلم دكتور / عماد الدين خليل .

٢٠- روح المعانى للألوسى . دار الغد العربى .

٢١- سنن أبى داود .

٢٢- سنن ابن ماجة .

٢٣- شرح التلخيص للبابرتى .

٢٤- شروح التلخيص .

٢٥- صحيح البخارى .

٢٦- صفوة التفاسير للصابونى .

٢٧- الطراز للعلوى .

٢٨- علم البيان بين التقعيد والتطبيق د / رجب محمد سالم .

٢٩- غرة التنزيل ودرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للإسكافى ط الأولى ١٣٢٧هـ .

٣٠- فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب دار الشروق .

٤١- القاموس المحيط للفيروز آبادى .

٣٢- الكشاف للزمخشرى دار المعرفة - بيروت .

٣٣- كتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال بالهامش لابن المنير .

٣٤- لباب التأويل للخازن .

٣٥- لباب النقول فى أسباب النزول على هامش تفسير الجلالين ط الحلبى .

٣٦- اللسان لابن منظور .

٣٧- مختار الصحاح .

٣٨- مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

٣٩- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص .

٤٠- مفتاح العلوم للسكاكى .

٤١- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص.

٤٢- مفردات القرآن.

٤٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

٤٤- معجم البلدان للسمعانى.

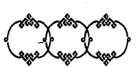
٤٥- معجم الأدباء.

٤٦- محاسن التأويل للقاسمى.

٤٧- مختصر ابن كثير.

٤٨- النسائي.

٤٩- نظرات فى البيان للدكتور/ محمد عبد الرحمن نجم الدين الكردى.



فهرس الموضوعات

